# الفصل الثانى

## القرآن الكريم والدعوة للتأمل الجمالى

- جمال العربية .. لغة القرآن.
- الجمال فى حروف اللغة العربية.
- القرآن والحواس أدوات التذوق.
- القرآن والتربية الجمالية.
- الجمال الحلال فى القرآن الكريم.
- القرآن .. وتجاوز الجمال الحسى.

# الفصل الثانى

## القرآن الكريم والدعوة للتأمل الجمالى

من عجائب الله وقدرته الإلهية المعجزة فى خلق الإنسان، أن يهب فى النفس البشرية إحساسها بالجمال والاستجابة له أينما وجد وعلى أية صورة. ذلك الاستعداد الذى يتجاوب مع روح الكون ويتواءم مع حقيقة الوجود تجاوباً مباشراً وعميقا منذ الوهلة الأولى التى تلتقى فيها الحواس البشرية بمظاهر ذلك الجمال.

والإنسان خليفة الله فى أرضه وأرقى مخلوقاته وأفضلها على العالمين هو أجدر المخلوقات بأن يدرك هذا الجمال فى علته وجوهر حقيقته التى خلقه بها الله؛ وذلك عندما تتصل روحه بالله، ويتوجه إليه بحس مرهف وروح شفيفة وبداهة طليقة ووجدان متفتح لما وراء المادة والشكل الظاهر إلى جوهر الكون وحقيقته الأبدية.

ومفهوم الجمال فى التصور الاسلامى أنه نظام وليس ضرورة . «فالله سبحانه وتعالى الخالق المبدع المريد، الفعال لما يريد والغنى عن العالمين قد خلق هذا الكون من غير ضرورة قاهرة، وبإرادة حرة طليقة لا تخضع لحاجة أو قيد، وأعطاه نظامه من غير ضرورة مقيدة لحريته سبحانه وهذا النظام الذى ليس بضرورة هو عنصر ولا شك من عناصر الجمال فى الكون، أن لم يكن هو ذاته الجمال» (١).

فهذا الكون الواسع الذى لا يدرك الحس البشرى حدوده قد خلقه الله بقدرة معجزة وبنظام دقيق ينظم حركته ويحكم دورانه وينسق عناصره وطاقاته ومكوناته، وهذا النظام يقوم على مقومات وسمات هى الدقة والتناسق، والتوازن، والتناسب والحركة والوحدة ..... وهى كلها مقومات الجمال ، وأسراره وعلاته

وكل هذه القيم الجمالية تكمن فى جميع المظاهر الكونية من شموس ونجوم وأجرام، وسماوات وأراضين، وبحار وجبال. وكل ما فى السماء وعلى الأرض وتحت الماء من مخلوقات وأحياء وجمادات.

---

(١) محمد قطب: **منهج الفن الإسلامى**، دار الشروق للنشر، القاهرة، ص ١٢٧ .

فجمال المخلوقات فى نظامها ... وبدونه لا تكون جميلة، وجمال المخلوقات فى دقتها وجمال المخلوقات فى توزان تراكيبها وتناسب أعضائها وبدونهما لا تكون جميلة وجمال المخلوقات فى حرية حركتها وبدونها لا تكون جميلة.

هذه هى مقاييس الجمال وسماته، وعلله. تلك المقاييس التى تشكل فى النهاية نظام الجمال. فالحياة الإنسانية كلها لا تكون جميلة إلا إذا كانت نظاما طليقاً من الضرورة.

فالفوضى المنفلتة من كل قيد ليست جمالاً، «ولا كذلك الحياة فى داخل قيود الضرورة، والفوضى صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون ولا يعترف بها ناموس الوجود فكل شىء فيه منظم منسق موزون. والقيد القاهر صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون كذلك ولا يعترف بها ناموس الوجود لأنه خالٍ من عنصر الضرورة فى خلقه ونظامه سواء. وإنما هو النظام الدقيق الذى تتوازن فيه القوى وتتناسق الطاقات ويخرج فيها كيان مترابط حى متحرك طليق»[1].

وعلى لسان (كوبلر) الشاعر والعالم الفلكى فى القرن السابع عشر يقول توفيق الحكيم : «كل الخليقة ليست إلا سيمفونية عجيبة فى مجال الروح والأفكار، كما هى فى مجال الأجسام والأحياء ... كل شىء متماسك مرتبط بعرى متبادلة لا تنفصم، كل شىء يكون كلا متناسقاً، إن الله قد خلقنا على صورته وأعطانا الإحساس بالتناسق. كل ما يوجد حى متحرك ... كل كوكب وكل نجم إن هُو إلا حيوان ذو نفس. أن روح النجوم هى سر حركتها وسبب ذلك النظام الذى تسير عليه الظواهر الطبيعية[2].

ويحدثنا القرآن الكريم فى الكثير من آياته أن ما من شىء فى الطبيعة والكون مهما صغر حجمه أو كبر قدره أو علا شأنه إلا ويسجد لله ويسبح بحمده، كما يدعونا سبحانه وتعالى فى كتابه المبين إلى النظر إلى الطبيعة والكون لتدبر عظمة خلقه وتأمل جمال إبداعه.

والقرآن الكريم عندما خاطب الإنسان بهذا الأسلوب الفنى المعجز الذى يحرك كل مكوناته نحو تأمل الطبيعة، إنما كان يوجه إلى الإنسانية دعوة ثنائية مزدوجة، فهى

---

(١) محمد قطب المرجع السابق، ص ١٣٦ .

(٢) توفيق الحكيم: **تحت شمس الفكر**، ص ٣٥ .

دعوة إلى التأمل العلمى والحدس الجمالى ـ إبداعاً واستمتاعاً ـ فى وقت واحد. فهى دعوة إلى العالم الذى يتفحص ويجرب ويستكشف الحقائق لإدراك سنن الطبيعة ونواميسها من أجل رقى العلم وتطور الإنسانية ورخائها ... وهى دعوة إلى الفنان الذى يعاين ويلمس وينظر ويسمع فيهتز فؤاده وينبض قلبه عشقا وهياما، وحدس مشرق موح ينقل كل أحاسيسه ويترجمها إلى أثر فنى جميل، وهى دعوة فى نفس الوقت إلى الإنسان ذلك المتأمل المستمتع ـ الذى لا يملك هبة التعبير وأدواته ـ موجهة إلى الجانب الانفعالى الجمالى فيه من أجل تنمية وتهذيب الإحساس البشرى ورفعه إلى الدرجة التى يستحقها الإنسان بإعتباره مخلوقاً متذوقاً حساساً.

وبين الطبيعة والإنسان ـ مبدعاً للجمال أو مستمتعاً ـ فى المنظور الاسلامى علاقة وثيقة ولكنها من نوع متميز شديد الخصوصية، هى علاقة تتمثل فيما عرف فى الإسلام بمبدأ وحدة الوجود، والذى مفاده أن جميع المخلوقات فى هذا الكون ترجع إلى اصل واحد فى التركيب، وتسير وفق ناموس واحد فى النظام. فالإنسان والطبيعة، والروح والمادة، الاتصال والانفصال، السكون والحركة، السلب والإيجاب، التصالح والتصارع، القبول والرفض ... كل هذه المقابلات والتناقضات، كلها فى التصور الاسلامى وحدة واحدة تديرها وتسيرها إرادة اله ومشيئته وقدرته.

أن التصور الاسلامى للجمال ينبثق من هذه القاعدة الشاملة، التى تضم الكل فى كيان واحد متماسك وعالم متناغم جميل يهز القلوب ويجلى النفوس، تجمعه الوحدة التى ترفض الذوبان والفناء والتمزق والتبعثر والتى ترفض فى الوقت نفسه الازدواج والتعدد، والانقسام والتشتت.

«إن الطبيعة لم تشكل لغرض أن تجىء جماليتها كتحد سلبى للإنسان يصده عن الوصول إلى الكمال علما وفنا، أو يثير فيه نزعة عدائية للتغلب على الطبيعة أو التفوق عليها وقهرها، إنما هى بمثابة استنارة أبدية ايجابية تحرك الإنسان صوب مزيد من الكشف والإبداع والابتكار، فهى أشبه بالمعادلة الشريفة العادلة التى لا غالب فيها ولا مغلوب، لأن الطبيعة والإنسان كليهما من صنع الله وقدره، ولأن الطبيعة لم تتخذ ولن تتخذ شكلها النهائى، فهى وفق سنن الله تعالى تتغير وتتشكل باستمرار، ثم أن الإنسان

بدوره مطلوب منه هذه الحركة صوب الأمام وإلى فوق ... هذا لأن الخلائق جميعاً فى نظر الفنان المسلم تمتاز بنوع من الألفة الميتافيزيقية والتعاطف الوجدانى والتوجه الكلى نحو الخالق المبدع سبحانه»(١).

هذا هو الموقف الجمالى فى التصور الاسلامى، وهذه هى دعوة القرآن الكريم لتأمل الجمال من خلال هذا الموقف وفى إطار ذلك التصور.

## هذا القرآن "كتاب الدين والدنيا"

الإسلام هو دين البشرية فى جميع عصورها، وجميع أجيالها، وجميع أجناسها، وجميع أراضيها وبقاعها ... والقرآن الكريم هو كتاب البشر أجمعين، كتاب الدين والدنيا للإنسان فى كل زمان ومكان.

* ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(٢).
* ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٣).
* ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).
* ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(٥).
* ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٦).

هذا القرآن نعمة الله الكبرى «حبيب عجيب معجز، حبيب إلى أهل الإيمان الذين يجدون فيه الشفاء والدواء والراحة والطمأنينة والسعادة، وعجيب فى سماته وصفاته، غنى فى معانيه ودلالاته، ثمين فى كنوزه وحقائقه، قوى فى أهدافه وأغراضه، واقعى فى

---

(١) عماد الدين خليل: سبتمبر١٩٧٨، **شئ عن الموقف الجمالى فى الإسلام**، مجلة العربى، الكويت.

(٢) القرآن الكريم: سورة النحل، آية ٨٩ .
(٣) القرآن الكريم: سورة النحل، آية ٤٤ .
(٤) القرآن الكريم: سورة الإسراء ، آية ٨٢ .
(٥) القرآن الكريم: سورة الإسراء، آية ٩ .
(٦) القرآن الكريم: سورة يونس، آية ٣٧ .

مهمته ورسالته، فاعل فى أثره ودوره، معجز فى أسلوبه وهديه، مستمر فى عطائه، إنه ذو عطاء دائم متجدد» (١).

هذا القرآن فرقان الله، يفرق به بين الحق والباطل ـ بين الظلمة والنور، بين الحلال والحرام، بين الهدى والضلال، منهاج الحياة بكل جوانبها ومقوماتها وأبعادها الدينية والعلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، يخاطب فى البشر القلوب والأفئدة، والمشاعر والأحاسيس كما يخاطب العقول والألباب ... كتاب أنواره مشعة لا تخبو، وأنهاره متدفقة لا تنضب ولا تتوقف، وظلاله وارفة لا تزول ولا تتلاشى.

هذا القرآن فى ألفاظه وآياته إعجاز إلهى. ذلك الإعجاز العلمى، والإعجاز الفنى، والإعجاز الاجتماعى والإعجاز الاقتصادى والإعجاز الكونى، والإعجاز اللغوى، ذلك الإعجاز الذى سحر ألباب العرب عندما تلقته نفوسهم مأخوذين مبهورين، حتى الذين لم يسلموا منهم. ويتجلى ذلك فى حديث الوليد بن المغيرة حيث قال :

«فماذا أقول فيه ؟ فو الله ما منكم رجل أعلم منى بالشعر، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجب. والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا، والله أن لقوله لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وانه ليحطم ما تحته وانه ليعلو وما يعلى»(٢).

هذا القرآن فى شكله ومضمونه، فى معناه ومبناه، فى لفظه وحرفه، فى سوره وصوره، زاخر بمعانى الجمال إبداعاً واستمتاعاً، بالإشارة والنص، بالتلميح والتصريح. فلفت الأنظار إلى الزينة والجمال فى كل المخلوقات وفى كل هذا الكون. إلى جانب ما لهذه المخلوقات من نفع، حتى يدرك الإنسان أن الحياة الإنسانية لا تقوم على الضروريات فحسب، بل هناك جوانب أخرى لا تتصل بالمنفعة فى شىء ولكنها تهدف إلى ما هو أسمى من ذلك، إلى ما يحقق للحياة الإنسانية إنسانيتها وسموها عن الحيوانية.

والقرآن بهذا يحث على تثقيف العقل حتى يصل إلى حب الحق، وتهذيب الخلق حتى يصل إلى حب الخير، وتوعية الذوق حتى يصل إلى حب الجمال.

ذلك الجمال الذى هو أبرز سمات هذا الوجود وأحد مقومات نظامه المحكم وناموسه

---

(١) حسين على محمد: **القرآن ونظرية الفن**، القاهرة ١٩٩٢ ص ١١.

(٢) محمد قطب: **منهج الفن الإسلامى**، دار الشروق، القاهرة، ص٩ .

المبدع. ذلك الجمال الذى طالما حث عليه القرآن الكريم ولفت الأنظار إلى تأمله، وهز النفوس بتصويره فى كثير من آياته المحكمات.

وإذا كان هذا المبحث يصبو إلى استخلاص مفهوم الجمال فى القرآن الكريم والتعرف على مجالاته والتنقيب عن مواضعه وتحليل تصويره لفظا ومعنى فى كتاب الله، فإننا يمكن أن ننطلق بالبحث من منطلقين أساسيين :

١ ـ أدوات ووسائط التعبير الجمالى فى القرآن الكريم والتى تتمثل بالدرجة الأولى فى لغته التى كتب بها، بألفاظها وحروفها واشتقاقاتها ومرادفاتها، وما تتضمنه من تراكيب لفظية وصياغات لغوية وما تنطوى عليه من صور البلاغة والبيان والبديع من استعارات وتشبيهات وكنايات وسجوع، وما يتحقق فيها من جرس صوتى وإيقاع موسيقى.

٢ ـ موضوعات التصوير الجمالى ـ فى القرآن ـ للإبداع الالهى من ظواهر كونية، ومشاهد طبيعية ومخلوقات حية وجامدة، فى الأخضر واليابس، فى الساكن والجارى والزاحف والقافز، والطائر والناقر والسابح فيما على الأرض وما تحت الماء وفى عنان السماء ... وفى كل أرجاء هذا الكون الفسيح. كذلك ما يتعدى صور الجمال الحسى المادى إلى صور الجمال المعنوى الذى تنطوى عليه أنواع السلوك والمعاملات الحياتية وكذلك القيم الخلقية والاجتماعية على المستوى البشرى.

ولعل أول ما يفسر أسرار الجمال فى النص القرآنى، أن هذا الكتاب الالهى قد نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية باللغة العربية ... لغة العرب الذين أتقنوها وأبدعوا فى فنونها وصياغتها شعراً ونثراً، حديثا وكتابة.

وفى هذا يقول المولى عز وجل :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١).

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾(٢).

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢ .
(٢) سورة الرعد: الآية ٣٧ .
(٣) سورة الزمر: الآية ٢٨ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

وكان لهذا القرآن العربى ما كان من أثر فى نفوس العرب الذين تلقوه مأخوذين مبهورين ببلاغته مشدوهين بشحنته العاطفية التى ملأت نفوسهم وهزت مشاعرهم فرقت القلوب ودمعت العيون وأسلم لله من أسلم، وذابت الأحاسيس فى السماع والاستمتاع بجمال التلقى والانفعال بروعة الإبداع.

## جمال العربية لغة القرآن

يقول المرحوم الدكتور أحمد أمين : فى الحق أن اللغة العربية أرقى اللغات السامية كما يقرر دارسو تلك اللغات، فلا تعادلها اللغة الآرامية ولا العبرية ولا غيرها من هذا الفرع السامى. وهى كذلك من أرقى لغات العالم، فهى تمتاز عن اللغات الآرية بكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها. فإذا قيس ما اشتق من كلمة عربية من صيغ متعددة لكل صيغة دلالة على معنى خاص بما يقابلها من كلمات إفرنجية، وما يشتق منها _ كانت اللغة العربية فى ذلك غالباً أوفر وأغنى» [2].

ولا غرابة بعد هذا فى اعتزاز العربى والمسلم بلغته أشد الاعتزاز واعتقاده بأنها أفضل لغات العالم؛ ثم ازدياد العربى اعتزازاً بلغته بعد نزول القرآن الكريم بها، وانتشار لغة العرب بين كثير من الأمم، وانتشار نور الإسلام وانبساط سلطانه على العالم المتمدين واتساع حضارة العرب لتشمل رقعة كبيرة من العالم، يتحدثون هذه اللغة الواحدة على مدار أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان.

"وإذا كانت كل لغة مكتوبة تمتاز _ كما يرى اللغويون _ بشيئين أساسيين أولهما الأساس الجوهرى القاموسى الذى يحوى الكلمات والتعابير، وثانيهما النظام الغراماطيقى بما يتضمنه من نظام بناء الكلمات وتراكيب العبارات والنحو والصرف، فان اللغة العربية هى بحق لغة أصيلة، لان لها قاموساً ونظاماً »[3].

واللغة العربية هى لغة الجمال الحسن والبيان والبديع فى فن القول : وهى كذلك

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤ .

(٢) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، مطبعة مصر، القاهرة، ٢٨٩ .

(٣) محمود عبد المولى: إبريل ١٩٧٨ ، **اللهجات خطر على الفصحى**، مجلة الثقافة العربية، طرابلس، ليبيا.

طالما كتبت ونطقت خالية من اللحن والتحريف وإخراج الكلم عن مواضعه والبعد به عن مراميه. وهى لغة إفضاء، وجمال صياغة، وأحكام تعبير وهندسة بناء، وجدلية فكر.

واللغة العربية معين لا ينضب، وكنز غنى، وثروة هائلة من أقباس الجمال. تلك اللغة التى قال عنها شاعر النيل حافظ إبراهيم :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضاقت عن آى به وعظاتى

وتتميز اللغة العربية بأسرار جمالها الكامن فى تراكيبها وصياغاتها، وتلك الصلة الخفية التى تربط بين اللفظ ودلالته، واستعمال كل كلمة فى تركيبها الصحيح وموضعها المناسب لتنفرد بمعناها ودلالتها.

وفى اللغة العربية نرى أن جمال العربية هو جمال انتماء وجلال بطولة، وخلود مجد، فاللغة العربية بشعرها ونثرها، ونصوصها البديعة وكنوزها النفيسة، وإبداعاتها وتجلياتها حقق بها الإنسان العربى تعبيراً عن أشواقه ومطامحه وسكب عليها من روحه ونفسه ووجدانه وفكره وعقله ورؤاه وأحلامه وتصوراته للطبيعة والحياة والكون.

«ولهذا كان التمسك بالحرف العربى رمزاً للوجود العربى ذاته، والإيمان بأن اللغة ونصها الإبداعى وطن بديل حين يهتز معنى الوطن، وحين يضطرب التاريخ، وتنسحب الجغرافيا وتغتصب الحقوق المشروعة تصبح اللغة بكل ما تمثله وطناً بديلاً مسكونا بالكلمات، نبض القلب الإنسانى ومجلى حياته وحفقانه»[1].

واللغة العربية فى تجلياتها الكاشفة قادرة على اختراق العصور، ومخاطبة الأزمنة حاملة عطرها وشذاها وإشعاعها الساطع المتوهج لتخاطب العقول والقلوب وتمس الفكر والوجدان.

ولعل من أهم سمات الجمال فى اللغة العربية هى سمة الإيجاز، التى يقول فيها الكاتب والمفكر أ.محمد حسن الزيات «لكل لغة عبقرية تستكن فى طرق الأداء وتنوع الصور وتلاؤم الألفاظ، وهى من حيث طريقة الأداء تستكن فى الإيجاز ومن حيث تلاؤم الألفاظ تستكن فى السجع والازدواج ... فإذا كانت الوجازة أصلاً فى بلاغات

(١) فاروق شوشة: **جمال العربية**، الكتاب العربى، الكويت، الكتاب ٥٢، ٢٠٠٣ ص ٩ .

اللغات، فإنها فى بلاغة العربية اصل وطبع وروح. فالازدواج على إطلاقه، والسجع على تقييده يؤلفان الموسيقية فى الأسلوب البليغ منذ كان للعرب ذوق وللعربية أدب»[1].

واللغة العربية تكون أكثر جمالاً حين تصبح لغة قضية وفكر، لغة أشعاع وتنوير، لغة مثل عليا وقيم رفيعة نبيلة، عندئذ يكتمل جمال المعنى والمبنى ـ كما كان يقول القدماء ـ وكما نقول نحن الآن تتحقق صدقية الجمال فى اللغة، ليس باعتباره جمال لفظ وشكل وإنما بوصفه جمال مضمون ومحتوى وبلاغة إشارة وتعبير، وما أروعه عندئذ من جمال[2].

ويلاحظ علماء اللغة والبلاغيون أن من جماليات العربية الجرس الصوتى لكلماتها والإيقاع الموسيقى لمقابلاتها، ووقع الألفاظ فى الإسماع، وتردد نغمها على الآذان. ولقد تفنن العرب فى كتاباتهم شعراً ونثرا فى هذا اللون من التراكيب اللغوية بما يدلل على مقدرة فنية عالية ومهارة لا تبارى.

ولا شك أن القرآن العربى الكريم يحفل بالكثير من مواطن الإعجاز اللغوى فى التعبير الجمالى والتراكيب اللغوية المبدعة جمالاً وخيالاً وإيقاعاً وجرساً. وعلى الرغم من أن حدود مساحة هذا الكتاب لا تتسع لحصر المواضع الجمالية فى الصياغة العربية لآيات القرآن الكريم، فهذا ما يحتاج إلى دراسات وبحوث وكتب خاصة فى هذه الناحية. كما أن بعد المؤلف عن التخصص فى علم اللغة والنحو والبلاغة العربية يحول بينه وبين الخوض فى هذا المجال المتخصص. على أن كل ذلك لا يمنع من مجرد الإشارة أو سياق المثال على هذا من نصوص القرآن الكريم.

يقول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[3] جاء هذا التكرار والترديد لكلمة (ساعة) مرتين فى هذه الآية بمعنى مخالف فى كل مرة. حيث جاءت فى المرة الأولى بمعنى يوم القيامة على حين وردت فى المرة الثانية بمعنى جزء معلوم المقدار من الزمن.

---

(١) نفس المرجع ص ٥٣ .

(٢) فاروق شوشة: **جمال العربية**، مرجع سابق ص ١٢١ .

(٣) سورة الروم : آية ٥٥ .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾[1] حيث نشعر بجمال الجرس والإيقاع الموسيقي في ذلك التقابل بين لفظتى الساق والمساق. وإذا تدبرنا قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾[2] بمعنى أن الكفار ينهون الناس عن إتباع النبى صلى الله عليه وسلم ويتباعدون عنه ولا يؤمنون به. ولنا أن نتأمل هذا التقابل بين كلمتى ينهون وينأون، وما يصاحبه من تردد وصوتى وإيقاع موسيقى تطرب له الأسماع.

وهكذا كانت عبقرية اللغة العربية _ لغة القرآن كتاب الله المعجز- التى وسعت آياته ولم تضق عن عظمته، وستظل عبقريتها شاهداً على جمال متجدد لا ينضب معينه ولا تنطفىء جذوته.

«وبفضل القرآن نمت اللغة العربية وتهذبت، إذ أمدها بألفاظ جديدة لم تكن معروفة من قبل، كما استخدم ألفاظا معروفة فى معان جديدة فغير بذلك مدلولها. وقد نقى القرآن اللغة العربية وصفاها واتجه بها نحو السهولة والبساطة، حيث هجر الثقيل منها والغريب والخشن والحوشى، وانصرف عن هجر الكلام ومبتذله، فعالج أدق الموضوعات والمعانى بألفاظ مهذبة وأساليب عالية رقيقة لا تخدش السمع ولا يعافها الذوق».[3]

وبفضل القرآن أيضا اتسعت اللغة العربية وامتدت مجالات استخدامها منذ أصبحت اللغة الرسمية لشعوب وأمم شتى دخلت فى الإسلام، وحفظت القرآن الكريم وتدارسته فأصبح لها هادياً وكتاباً مبينا ودستور حياة كامل.

## القرآن وجماليات الحرف العربى

لعبت حروف اللغة دورا جماليا بارزا فى كثيرا من فنون الحضارات الكبرى على مر التاريخ. فلقد كانت الكلمة صورة منذ أن عرف الأولون الكتابة بالحروف الهيروغليفية، وكانت الكلمة متممة للصورة يوم أضيفت للإيضاح فى أعمال المصريين القدماء والرافدين والمسلمين.

---

(١) سورة القيامة: آية ٢٩ ،٣٠. (٢) سورة الأنعام: الآية ٢٦ .

(٣) أحمد رأفت على: **الرسم بالألوان فى القرآن**، ص ١٣٠ .

ويحمل الحرف العربى أصالة اللغة العربية التى تطورت على الأرض العربية منذ أقدم العصور حتى اليوم حيث كانت اللغة النبطية آخر أطوار هذه المرحلة الطويلة، بيد إن هذه اللغة تطورت تطورا سريعا متخذة صيغة جديدة هى اللغة العربية الحديثة التى نعرفها اليوم.

«ولقد بقى الخط العربى مدينا بتطوره التاريخى لذكاء الفنان المسلم ولقدرته على الإبداع الإنسانى، والتى تدين لتطورها عندما اختارها الله لتكون أداه لنشر الرسالة الدينية التى نزلت بالقرآن الكريم على الرسول محمد»(١).

ولقد عنى المسلمون منذ مهبط الإسلام بالخط العربى : تعليمه وتدوينه، تجويده وتحسينه، حيث ارتبط ارتباطا وثيقا بتدوين القرآن الكريم ونسخ المصاحف الشريفة، وكتابة الآيات القرآنية التى اعتبرها المسلم من أعظم الوسائل للتقرب إلى الله فلقد كان من الطبيعى أن تتخذ الآيات القرآنية مكانها فى المساجد لتحل محل الصور الدينية فى الكنائس.

ونال الخط العربى عناية الرسول الكريم محمد صلى الله على وسلم حتى أنه اتخذ من مسجد المدينة مدرسة لتعليم المسلمين الكتابة. ويحفظ لنا التاريخ الكثير من الأقوال الشهيرة عن جمال الخط وتجميله. ومن ذلك قول على بن أبى طالب رضى الله عنه : «عليكم بحسن الخط، فانه مفتاح الرزق» ، وقول ابن العباس : « إن الخط الجميل يزيد الحق وضوحا »، وعن وهب انه قال أن رجلا كتب بسم الله الرحمن الرحيم فأحسن تخطيطه فغفر الله له، إلى آخر تلك الأمثلة.

وسعى المسلمون بمختلف طبقاتهم ـ وقتئذ ـ إلى نسخ المصاحف وكتابة القرآن الكريم وتنافسوا لنيل هذا الشرف حتى حرص الخلفاء أنفسهم وكذا الحكام والوزراء على القيام بهذا العمل فى أوقات فراغهم وهم يفخرون بانتمائهم لأساتذة الخط فى عصره بل لقد كانوا أيضا يتسابقون لمعاونة الخطاطين أثناء عملهم. وهكذا أصبح الخط العربى أشرف الفنون ، وأصبحت مهنة الخطاط من أشرف المهن، فارتفعت مكانة الخطاطين فى المجتمع الاسلامى واحتل عدد منهم منصب الوزارة. وحظى الخط العربى

(١) القلقشندى: **صبح الأعشى فى صناعة الانشا**، القاهرة، وزارة الثقافة، ص ١٩ .

خلال هجرته إلى البلاد الإسلامية فى فارس وتركيا والأندلس بنفس الاهتمام والتقدير الذى لقيه فى الجزيرة العربية.

ولقد اخذ الخط العربى عدة أشكال فنية، وتعددت أنواعه ولكنها تنضوى جميعها تحت نمطين أساسيين _ كما يذهب إلى ذلك المتخصصون _ أحدهما تزيينى، والآخر قاعدى. أما التزيينى فيعتمد على حرية الفنان وتصرفه فى تشكيل حروفه وتنويعها وابتكار الزخارف عليها مثل الخط الكوفى بأنواعه الهندسى المضلع، والمزهر والمضفر وكذلك الخط الديوانى والفارسى. أما النوع القاعدى فهو ما يعتمد على القواعد والأصول الفنية المحددة مثل النسخى والرقاع والثلث. ولكل منها جماله وقيامه على قيم الإيقاع والتناسب والانسجام والترابط.

وادخل الفنان الاسلامى الحرف العربى كعنصر رئيسى فى كل ما أنتجته ريشته حتى أصبح من العلامات التى تميز الفن الاسلامى، ومن خصائص هذا الفن التى لا تخطئها العين. واستخدام حروف الكتابة كعنصر تشكيلى بحت لمن الأمور والتقاليد الفنية التى استحدثها الفنان الاسلامى كما يقطع بذلك معظم الباحثين ومؤرخو الفن، الذين يجمعون على أن أى فن من الفنون القديمة أو الحديثة لم يستخدم خطه القومى كعنصر تشكيلى على الإطلاق سوى الفن الاسلامى، وان الفنان الاسلامى كان فى ذلك مبتكرا تماماً.

ويفسر الباحثون اتجاه الفنان الاسلامى إلى استخدام الكتابة العربية على منتجاته الفنية بأن الفنان قصد من هذا فى أول الأمر تسجيل نعمة الله وفضله، وحمده وشكره ويبدو هذا فى كثير من المنتجات الفنية كالأوانى والقناديل والأطباق وشبابيك القلل حيث سجلت عليها عبارات مثل «الحمد لله» ، «الشكر لله» ، و «لا غالب إلا الله » . غير أن الفنان المسلم سرعان ما أدرك أن الخط العربى يتصف بالخصائص التى تجعل منه عنصرا تشكيليا صالحا لتحقيق الأهداف الفنية التى يرمى إليها الفنان فاستغل هذا العنصر استغلالا جماليا رائعا على جميع أعماله الفنية حتى أن الفنان الاسلامى كان كثيرا ما يستخدم الخط العربى استخداما تشكيليا بحتا وذلك بصرف النظر عن مضمون الكلام نفسه.

وقد بلغت الزخرفة الخطية (الحروفية) أوج ازدهارها فى القرن الخامس الهجرى

حيث عم استخدامها فى زخرفة التحف والأوانى المعدنية والخزفية والزجاجية وبلاطات القيشانى والنسيج والكتب والمخطوطات. أما العمارة الإسلامية فكانت من أهم الميادين التى استخدمت فيها الزخرفة الخطية العربية حيث استخدمت فى العمائر أشرطة الكتابة فى أعلى الجدران لربط المستويات الرأسية بالأسقف والقباب. ومن أمثلتها شريط الكتابة العربية الموجود بالمسجد الأموى بدمشق والذى يحتوى على آيات قرآنية مكتوبة بالرقائق المذهبة، يبلغ طول هذا الشريط حوالى سبعمائة متراً، وكذا الآيات القرآنية بقبة الصخرة والمكتوبة بالفسيفساء المذهبة على أرضية زرقاء ... وغير ذلك كثير من الأمثلة فى مختلف العمائر الإسلامية.

وفى تصوير المخطوطات والمنتجات الخزفية وصناعات النسيج استخدم الفنان الاسلامى أروع مزج عرفة تاريخ الفنون بين الرسم والكتابة حيث ألف الفنان منهما فى تكامل واتزان إيقاعا تشكيليا على مستوى عال من القيمة الفنية. فقد لعب الحرف العربى فى هذه المجالات دوراً تشكيليا وجمالياً هاماً وخطيراً.

وفى الواقع أن هذا الازدهار الذى بلغه فن الخط العربى عند الفنان المسلم لم يتحقق من فراغ ولم يكن وليد الصدفة . فلقد حمل الحرف العربى من الامكانات الفنية والاستعدادات الإبداعية ما وافق عبقرية الفنان المسلم وذكاءه الذى نجح إلى ابعد الحدود فى استغلال الحرف العربى كقيمة تشكيلية وقابليته على التشكيل والتطويع وفق متطلبات التكوين الفنى، وأنتج ما يحفظه لنا التاريخ من أروع الأمثلة والنماذج الفنية التى تألق فيها الحرف العربى تألقا بديعا وذلك بفضل القدرات التشكيلية للحرف العربى وأبعاد القيم الفنية المواكبة لها وتعدد أنواع الحرف وكثره أشكاله، وقابليته للتمدد والتقلص والتشكيل الفنى واستعداده للاستقامة والتمحور والاستدارة، ومشاكلة بياضه بسواده بالتقدير وحلاوة افتراقه باجتماعه، ( وذلك على حد وصف العسجدى للخط الجميل ).

ومن الطريف أن نقرأ للفيلسوف والناقد العربى ( أبو حيان التوحيدى ) رأيا عن جماليات الحرف العربى وذلك عندما حدد شروطا سبع لجمال الخط. حيث يقول : الخط الجميل هو الخط المجرد بالتحقيق، والمحلى بالتحديق، والمجمل بالتحويق، والمزين بالتخزيق، والمحسن بالتنسيق، والمجاد بالتدقيق، والمميز بالتفريق :

أما المجرد **بالتحقيق** فأبانة الحروف كلها، منثورها ومنظومها، مفصلها وموصلها، بمداتها وقصراتها، وتفريجاتها وتعويجاتها، حتى تراها كأنها تبتسم عن ثغور مفلجة، أو تضحك عن رياض مدبجة.

وأما المراد **بالتحديق** : فإقامة الحاء والخاء والجيم وما أشبهها على تبيض أوساطها، محفوظة عليها من تحتها وفوقها وأطرافها، أكانت مخلوطة بغيرها أو بارزه عنها حتى تكون كالأحداق المفتحة.

وأما المراد **بالتحويق** : فأدراة الواوات والفاءات والقافات وما أشبهها مصدرة وموسطة ومذنبة يكسبها حلاوة ويزيدها طلاوة.

وأما المراد **بالتخريق**: فتفتيح وجوه الهاء والعين والغين وما أشبهها كيفما وقعت أفرادا وأزواجا، بما يدل الحس الضعيف على اتضاحها وانفتاحها.

وأما المراد **بالتعريق**: فإبراز النون والياء وما أشبهها، مما يقع فى إعجاز الكلمة مثل عن وفى ومتى والى وعلى بما يكون كالمنسوج على منوال واحد.

وأما المراد **بالتنسيق**: فتعميم الحروف كلها مفصولها وموصولها بالتصفية وحباطتها من التفاوت فى التأدية، ونفض العناية عليها بالتسوية.

وأما المراد **بالتوفيق**: فحفظ الاستقامة فى السطور من أوائلها وأواسطها وأواخرها واسافلها واعاليها بما يفيدها وفاقا لاخلافا.

وأما المراد **بالتدقيق**: فتحديد أذناب الحروف بإرسال اليد، واعتمال سن القلم، وأدارته مرة بصدره، ومرة بسنه، ومرة بالاتكاء ومرة بالارتخاء، بما يضيف إليهما بهجة ونورا ورونقا وشذورا.

وأما المراد **بالتفريق**: فحفظ الحروف مزاحمة بعضها لبعض، وملابسة أول منها لآخر ليكون كل حرف منها مفارقا لصاحبه بالبدن، جامعا بالشكل الأحسن .[1]

«ولقد كانت يد الفنان هى امتداد عقله ووسيلة تعبيرعن احساساته فى فن ربطه بالدين، ساعده على ذلك طبيعة الحرف العربى وأشكاله المختلفة ـ سواء كانت مستقيمة أو منحية أوأفقية أو مائلة أو رأسية ـ بمرونتها التى ساعدت الفنان على تطويع الحرف

(١) **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين عام ١٩٤٤ الجزء الثانى، ص ٧٤ .

حسب إرادته. ولذلك يمكن القول بأن الكتابة العربية تتمثل فيها صفة الحركة وصفة الإيقاع، بالإضافة إلى ما تحمله من معنى تجريدى فى حد ذاته. يقول المستشرق الفرنسى الناقد والفنان ( ايتين دينيه ) الملقب _ بعد إسلامه _ باسم (ناصر الدين) فى كتابه (الشرق كما يراه الغرب) : أن فن الخط العربى لهو من أروع الفنون التى تمخضت عنها مخيلة الإنسان ولعله الفن الأوحد الذى نستطيع أن نقول عنه دون مغالاة أن له روحا ... فهو كصوت الإنسان يعبر عما فى النفس من أفكار، وهو لا يستوحى العالم الخارجى مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنسيق فى شىء، وهو بذلك ينتسب إلى الموسيقى ويبدو وكأنه رمز لمعان تجيش فى أعماق القلوب. أنظر إلى هذه الحروف التى تثب من اليمين والشمال فى خطوط أفقية سريعة ثم تدور حول نفسها فى تموجات هادئة أو عنيفة، وكأنها فى ذلك تسير وفق هوى روح داخلية خفية ثم ترتفع، ثم تتوقف فجأة وتثبت فخوره فى أشكال مستقيمة متقاطعة ثم إذا بها تعود إلى الاندفاع فى جموح وتحل ما انعقد من أشكالها، ويداعب بعضها البعض فى مرح لذيذ فيندفع معها الخيال فى أحلام لا نهاية لها. وليس من الضرورى أن يكون الإنسان مستشرقا ممتازا أو خطاطا بارعا ليدرك عمق الدوافع التى أدت بالقلم إلى رسم هذه الخطوط، وليتمتع بالنظر إلى أشكالها المجردة أو بالتأمل فى العاطفة القوية التى تظهر فى انحناءاتها ... فكل روح فنانة لابد أن تتصل الأسباب دون جهد بينها وبين أسرار هذا الفن» (١)

وهكذا كانت مفردات اللغة العربية عناصر لغة فنية تشكيلية بليغة تكاتفت فيها خصائص الحرف المتنوع الأشكال ، و«الكلمة» العربية المتميزة بقدرتها على تغيير مضمونها بأثر من قدرتها على التركيب الاشتقاقى، و«الجملة » التى تتيح للمضمون الأدبى أن يلج العمل التشكيلى ويعمق من إمكانياته التعبيرية وأثبتت كل هذه الخصائص قدرة الحرف العربى على التشكيل الجمالى البحت وعلى التكوين الفنى المتكامل.

وهكذا، فقد أثار الخط العربى ـ بما ينطوى عليه من إمكانات تشكيلية وقيم جمالية ـ إعجاب الباحثين والمؤرخين من الشرق والغرب على السواء. فيقول جاك ريسلر عن

(١) عبد الحليم محمود: **أوربا والإسلام**، مطبعة الأهرام، القاهرة ص ٥٧ .

الكتابة العربية : «لا توجد كتابة تجاريها فى رشاقتها، وكما حمدنا للحرف العربى فنه الأصيل وجماله العميق فأننا نأسى لما آلت إليه الكتابة على يد مطبعة جوتنبرح [١] أما ديماند فيقول عن جمال الخط العربى ونجاح الفنان الاسلامى فى استغلاله كعنصر تشكيلى : «كان اكبر عون للمسلمين فى هذا الصدد طبيعة الحروف العربية وما فيها من تقوس وانبساط واتصال، وما تقبله رؤوسها وسيقانها من ذيول زخرفية وتوريق وترابط» [٢]

والى جانب ما يملكه الحرف العربى من القيم التشكيلية، فأننا لا يجب أن نغفل الشق الروحى والمعنوى للحرف العربى فى إطار البناء التشكيلى، ذلك أن الرصيد الروحى لمنطقية اللغة العربية تجعل من الحرف كيانا كونيا بشقية المادى والروحى معا. فالكلمة المكتوبة التى تتكون من عدد محدد من الحروف تكون مجرد كيان شكلى بحت لحروف صامته مرسومه وضعت متجاورة متفرقة أم مترابطة ولكن عندما نقرأ هذه الكلمة نفسها فأنها تتحول من كيان مكتوب إلى كيان متصور وإلى معنى مفهوم له كيانه اللغوى التام والذى يضفى على الكلمة حياة أخرى روحيه وذلك بفضل ما نسمية ( بالحركات) التى تمثل الحياة الروحية للغة. تلك الحركات التى ينطقها القارىء فتتحول الكلمة من مجرد جثة تتكون من عدة حروف إلى جسد ينبض بالحياة. وعن صوفية الحرف العربى وروحانيته يقول عبد العزيز مرزوق :

«لقد ظهر بظهور الاسلام علم ينسب إلى الحروف العربية أسرارا خفية تمكن الإنسان من التأثير فى المخلوقات بواسطة الأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار فى الأكوان كما يقول ابن خلدون فى مقدمته. ولا يعنينا من أمر هذا العلم إلا شيء واحد هو أن هذه العقيدة قد دفعت بالمسلمين إلى تزيين ما أخرجته أيديهم من مصنوعات أو شيدوه من عمائر بالآيات القرآنية والعبارات الدينية والصيغ المختلفة للمدح والدعاء وطلبا لما ورائها من الخير والبركة. ولقد كان لهذا اثر بعيد فى فن الخط العربى إذ أصبح مضروبا مشتركا فى جميع فروع الفن الاسلامى»[٣].

---

(١) جاك ريسلر: **الحضارة العربية**، مرجع سابق، ص ١٠٥ .

(٢) **س. ديماند: الفنون الإسلامية**، ترجمة أحمد محمد عيسى ١٩٥٨، ص ١٥٦ .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق: **الإسلام والفنون الجميلة**، ص ٧٦ .

ويؤكد الباحثون والمؤرخون أن استعمال اللغة العربية كان أحد المقومات الأساسية التى وحدت بين المسلمين. فبينما كانت الكلمة المكتوبة فى أول انتشار الإسلام موجهة بشكل رئيسى لكتابة القرآن الكريم، استخدمت الكتابة العربية أيضا للمعاملات الدنيوية بالإضافة إلى فنون القول من شعر ونثر وخطابة قديماً إلى جانب ما نراه اليوم من اتجاه الفنان العربى التشكيلى صوب الحروف العربية ليجعل منها مادة إلهامه وإبداعه وذلك فى ظل معاناة الفنان العربى الحديث من إشكالية بناء شخصيته الفنية المميزة وهويته المستقلة عن أصول الفن الغربى التى ظلت لسنوات طويلة منبعه ومصدر إبداعه.

ومع كل ذلك كان ولا يزال ـ القرآن الكريم بآياته وكلماته مجالاً رحبا وفسيحاً لإبداعات يد الفنان الخطاط المسلم الذى أنتج روائع اللوحات الفنية بمختلف فنون الخط العربى التقليدى والحديث التى تبهر الأبصار وتثلج الصدور وتهز الوجدان بما تنطوى عليه من جمال وكمال وجلال ... جمال الشكل والروح وكمال المبنى والمعنى. وجلال العظمة والقدرة.

وفى هذا المجال جعل الخطاط والفنان المسلم من الحرف العربى لغة مكتوبة ومقروءة ومحسوسة ومستوعبة ومستبصرة فى أن واحد ليكون شكلا ومساحة وإيقاعاً وحركة وروحا فى وقت واحد وبشكل متكامل.

وهكذا أعطى القرآن الكريم الحرف العربى قيمة جديدة. ليست كقيمة تشكيلية جمالية بحتة، وليست قيمة إيضاحية فقط، وليست كبناء موضوعى مجرد فحسب، بل باعتباره مجالا لتفجير طاقات وجدانية، وتفعيل حركة ذهنية وزخم روحى متجدد يفيض بكل المعطيات الإنسانية.

## القرآن والنقد الأدبى

خاطب القرآن الكريم فى النفس البشرية الروح والوجدان، مثلما خاطب فيها العقل والفكر. وكانت الدعوة إلى التأمل الجمالى واستشعاره والانفعال به ـ على مستوى الجمال الربانى أو الجمال الفنى ـ من أهم آثار هذا التنزيل الالهى، سواء كان هذا التأمل الجمالى على مستوى التذوق والاستمتاع، أو على مستوى النقد والشرح والتفسير.

ولقد كان للقرآن الكريم أثراً واضحاً ومباشراً فى تطور النقد الأدبى وفى صقل الذوق الفنى العربى بوجه عام.

فلقد آثار القران الكريم منذ نزوله حركة فكرية نقدية عند المسلمين، بل وغير المسلمين، فنبه إليه الأذهان لما جاء به من جديد فى أساليب التعبير والبيان، وجذب إليه الأفئدة والأسماع بما جمع وحوى من رائع الكلم فلم يسعهم إزاءه إلا التسليم بروعة أثره فى النفوس وفى العقول، واعترف بلغاؤهم وأولو الفطنة منهم بذلك الأثر وتحيروا فيه، فمن قائل أنه سحر، ومن قائل أنه أساطير الأولين أو سجع الكهان» (١)

ولقد بدأت دراسات القرآن وتفسيره منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وفى صدر الإسلام بمحاولات فردية متفرقة ومحدودة لمعرفة المقاصد اللغوية لأسلوب القرآن. وكان هذا طبيعيا حيث كان المجتمع الاسلامى الناشىء أحوج إلى التشريع الذى ينظمه، ويرسى قواعده. ثم تعمقت هذه الدراسات وتشعبت بحوثها فى بداية القرن الثالث الهجرى وظهرت منها اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الأول : وهو التفسير الدينى للقرآن، وهو يحمل وجهة النظر الدينية وتاريخ التفسير، ومثال هذا النوع تفسير الطبرى. والاتجاه الثانى هو التفسير اللغوى النحوى للقرآن. ويتخذ هذا النوع من ألفاظ القرآن ولغته وتراكيبه ميدانا له، ومن أمثلة نقاد هذا الاتجاه : أبو عبيدة بن المثنى، وأبو زكريا يحيى بن زياد، أما الاتجاه الثالث فى الدراسات القرآنية فيبحث فى آخر ناحية فى تاريخ النقد الأدبى العربى وهى بحوث البيان وفنون التعبير المختلفة فى القران من بديع، وبلاغة، وغيرها. ومن أمثلة نقاد هذا الاتجاه الجاحظ، وابن قتيبة.

ثم ازدهرت دراسات القرآن الكريم بعد ذلك وبلغت أوج اكتمالها فى القرنين الرابع والخامس الهجرى حيث تجمعت الآراء، وتجوهرت النظريات وانتظمت الدراسات وأرست بنيانها على قواعد ثابتة وأصول محددة، وبرز فى هذه الفترة باحثون من أمثال الواسطى، والروائى والخطابى ومنهم أيضا، الباقلانى، وعبد القادر الجرجانى، والزمخشرى وابن الأثير وغيرهم.

ولم يكن العرب وحدهم ولا علماء المسلمين من مختلف الأمصار هم الذين تعرضوا فقط للقرآن الكريم بالدراسات والأبحاث، بل شاركهم فى ذلك كثير من

(١) محمد زغلول سلام: **أثر القرآن فى تطور النقد العربى**، ط٣ .

العلماء المستشرقين ومنهم : «أرنست، سبرنجر»، «كليمت هيوارت»، «ستانلى لا ينول»، نولوكه وغيرهم. ولا زالت حتى يومنا هذا الدراسات القرآنية تشغل تفكير العلماء والباحثين من الشرق والغرب على السواء.

وهكذا يمكننا أن نقول بأن القرآن الكريم كان صاحب فضل لا ينكر فى تربية الملكة النقدية عند العرب وتعهدها منذ نشأتها وتطورها فى دراسات القرآن والنقد والبلاغة، وكان لما امتاز به أسلوبه من روعة التعبير وجمال الأداء اكبر الأثر فى مقاييس الأدب وموازينه وكان الشاهد من آياته الحكم والمرجع فى فنون القول وضروب الأساليب. «وهذه ظاهرة فى الأدب العربى وحده لم تشاركه فيها أى من الآداب الأخرى لأنها لم تحوى كتابا مثل القرآن، وكان لهذا نتائجه التى لم تعرف فى أدب غير الأدب العربى، وفى نقد إلا فى النقد العربى» (١)

## القرآن ... والتذوق الفنى

قبل أن نتناول مفهوم الذوق والتذوق ومعناهما فى مجالى الفن والجمال نرى أنه من المناسب أن نبدأ أولا بالبحث عن أصل هذه الكلمة ومعناها الدقيق المحدد فى معاجم اللغة العربية.

لقد وردت كلمة (الذوق) فى معاجم اللغة على أنها الحاسة التى تميز بها الخواص الطعمية للمواد بواسطة الجهاز الحسى فى الفم والذى مركزه اللسان. ومن هنا جاءت أيضا المعانى المتعددة لاشتقاقات هذه الكلمة. فيقال : (ذاق الطعام) أى اختبر طعمه. (وذاق الشىء) أى جربه واختبره وأحسه، ويقال : (تذوق الطعام) أى ذاقه مرة بعد مرة. أما المذاق فهو طعم الشىء فيقال : طيب المذاق، أما الذواق فهو جيد الذوق الخبير.

هكذا جاءت كلمة (الذوق) فى اللغة العربية كقوة تدرك بها الطعوم المختلفة للمواد من حيث الحلاوة والمرارة والملوحة والحموضة ... وهكذا.على أن رجال الأدب وفلاسفة الفن والجمال والمشتغلين بهما استعاروا معنى هذا المصطلح ونقلوه من تذوق الطعام إلى تذوق الفن والجمال. وفى هذا المجال يرد فى المعجم الوسيط تفسير لمصطلح (الذوق) فى مجال الأدب والفن على أنه (حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو

(١) محمد زغلول سلام: نفس المرجع ص ٣٧٥ .

انقباضها لذى النظر فى اثر من آثار العاطفة أو الفكر، ويقال : هو حسن الذوق للشعر بمعنى فهام له خبير بنقده ).

ولكى نقف على معنى التذوق الفنى يشكل أدق، يمكننا أن نستعرض آراء بعض النقاد وفلاسفة الجمال فى تعريفه ... فالتذوق عند دافيد بيرت هو (تربية المشاعر من خلال الفنون) _ وعند كولارد _ (أيقاظ إحساس الفرد ليصبح واعيا بالجانب الجمالى للبيئة لينمى قدراته الابتكارية وليكشف اثر الفن وقيمة التراث الثقافى). أما جون هوسير فيرى أن التذوق الفنى هو (الحس الرقيق للجماليات، وهو تمتع جمالى بشىء ما، ليس بالتمعن فى مظهره الخارجى فقط بل لمحتواه الكلى وربطه بالعلاقات الجمالية من شكل وتصميم).

وهكذا يمكن أن نستخلص من تلك الآراء أن التذوق الفنى يعنى استجابة الفرد للعمل الفنى استجابة جمالية تمكنه من إدراك نواحى الجمال فيه. على أننا يمكن أن نخرج بمفهوم التذوق عن حدود دائرة العمل الفنى إلى مجال أوسع عندما نطلق كلمة التذوق الجمالى حيث يكون المعنى هنا أشمل. ذلك أن التذوق الجمالى يعنى الاستجابة للجمال والإحساس به وإدراكه فى شتى صوره سواء فيما خلقه الله فى الطبيعة أو فيما أبدعته يد الفنان فأثرى به الحياة فى مختلف مرافقها.

والتذوق الجمالى أو ما يمكن تسميته بالاستجابة الجمالية تعنى ذلك الشعور باللذة والارتياح عند تذوقنا للجمال فى أى صورة من صوره، ولكن ليست كل نشوة أو متعة هى من صفات الجمال ووليدة الشعور به، إذ أن اللذة والمتعة التى نشعر بها عند تناول كوب من الماء بعد طول ظمأ هى نوع من اللذة التى يمكن أن نسميها لذة حسية، ولكنها ليست لذة جمالية. ذلك أن الشعور بالارتياح الذى يحس به الإنسان عقب استمتاعه بالجمال هو عملية وجدانية خالصة يتحرر فيها الإنسان من عالم الواقع وما يرتبط به من قيود حسية مادية.

وعلى هذا فان التذوق الفنى هو قدرة الفرد على الاستجابة للجمال والإحساس به. أى انه القدرة على الاستجابة للمؤثرات الجمالية استجابة تجعل المشاعر تهتز لها وتستمتع بها. فالتذوق إذن يمثل نبضات التفاعل وإدراك العلاقات بنوع من الفهم

والوعى والحس الجمالى فى كل ما نرى أو نسمع أو ندرك من المواقف التى نمر بها فى حياتنا.

## الذوق بين الفن والحياة:

وبهذا المفهوم نستطيع أن نصل بكلمة (الذوق) إلى معنى أشمل وأوسع نطاقا عندما نتصور الذوق على أنه ليس فقط الاستجابة الجمالية للعمل الفنى أو للعلاقات الجمالية الموجودة فى الطبيعة، ولكن على أنه يتعدى ذلك لتشمل هذه الاستجابة الجمالية كل نواحى الحياة وكل ما نمر به فى حياتنا من خبرات ومواقف، وعندما يصبح الجمال سلوكا عاماً وسمة غالبة تصبغ كل تصرفاتنا بصبغتها. إن الشخص الذى يملك قدرا من الذوق فهذا يعنى أن هذا الشخص لديه حساسية فى كل تصرفاته وسلوكه يدرك من خلالها الجمال ويرعاه وينشره ويدعو إليه.

فالإنسان الذى تتأكد عنده الحساسية للجمال هو ذلك الإنسان الذى تتحول حياته إلى تذوق ومتعة، فلا يفوته موقف إلا وعالجه بحس الفنان المرهف فيضفى على كل خبرة يمر بها جانبها الجمالى الذى يكسبها حيوية وقيمة دائمة.

أننا نمارس الذوق فى كل دقيق تمر بنا وفى كل خبرة نمر بها _ وفى كل مكان تتواجد فيه، فى مكاتبنا وفى بيوتنا وفى الطريق وفى متاجرنا وفى وسائل المواصلات. إننا نستخدم الذوق فى كل تعاملاتنا _ وفى علاقاتنا مع الآخرين _ فى البيع والشراء، وفى المعاملات وفى المجالس والتجمعات _ أننا نمارس الذوق ونطبقه فى كل نواحى حياتنا، ففى حديثنا يدخل الذوق، وفى طريقة أكلنا وشربنا يدخل الذوق، وفى كل تعاملاتنا يدخل الذوق، حتى أننا لنتذكر الآن تلك العبارة الشهيرة التى طالما سمعناها وقرأناها والتى تقول بأن القيادة فن وذوق وأخلاق. إن السلوك الجمالى الذى يتسم بالذوق هو فى النهاية صفة من صفات الإنسان المتحضر. وهذا النوع من الذوق هو ما يمكن تسميته بالذوق العام.

نستخلص من هذا أن الذوق هو حركة ديناميكية حية تشمل التأثير والتأثر بمواقف الحياة التى يلعب فيها الجمال دورا ايجابيا. وأن المواقف التى تدعو لممارسة التذوق ليست قاصرة على مجالات الفنون فقط، بل يدخل فيها كل مواقف الحياة. تلك

المواقف التى ترتبط بالإنسان تارة وبالأشياء تارة أخرى. وفى كل منها يدخل الجمال ويدخل الذوق.

ومن البديهى أن الفن يعطينا مفاتيح الجمال والقبح، ولذلك فان الذوق فى عمومه يعنى تطبيق مبادىء الفن لا فى إنتاج الأعمال الفنية فحسب بل فى تنظيم الحياة نفسها. فالفن يكشف القواعد التى يبنى عليها الجمال، وحينما ينقلها الإنسان لمواقف الحياة المختلفة فإنه يرتقى بذوقه إلى المستوى الرفيع. ولذلك فان الفنانين على اختلافهم ما هم إلا قادة للذوق وأداة لتطوره والارتقاء به.

## مستويات التذوق ودرجاته:

كل الناس يمارسون الذوق فى كل لحظة من اللحظات رضوا بذلك أم لم يرضوا ولكنهم يتفاوتون فى مستوى إدراكهم له، وبالتالى فى تطبيقه فى مواقف الحياة المختلفة.

وإذا عدنا بمفهوم الذوق والتذوق إلى مجال الفنون نجد أيضا أن الناس يختلفون فيما بينهم فى مدى استجابتهم للجمال وفى درجة تذوقهم له. فهناك العديد من مستويات التذوق تتراوح بين الاستجابة السطحية والاستجابة العميقة الواعية للفن والجمال. فهناك استجابة العوام الذين يستهويهم مظهر الشكل وسطحية الموضوع أكثر مما يستهويهم الجوهر _ وهناك المثقفون الذين يشعرون بما يتضمنه العمل الفنى من قيم عميقة المغزى. والثقافة هنا ليست ثقافة الكتب ولا ثقافة المعلومات، وإنما هى الاستجابة الصحيحة لجوهر الوجود والإدراك الواعى لنظام الكون والطبيعة. وهذا النوع الخاص من الثقافة ليس شيئا كماليا، ولكنه ضرورة أساسية للحياة.

وقد تعرض المشتغلون بعلم الجمال إلى موضوع تذوق الفن والاستجابة الجمالية واستطاعوا أن يقسموا الناس إلى طوائف متعددة تتراوح فى استجابتها للعمل ما بين السطحية والعمق، كما استطاعوا أيضا أن يتوصلوا إلى تحديد العوامل العديدة التى تؤثر فى الاستجابة الجمالية للأفراد، والتى ترجع إلى العوامل البيئة والاجتماعية والنفسية والفكرية والثقافية ....الخ تلك العوامل التى تختلف وتتفاوت من شخص إلى آخر.

وكما أن الناس يختلفون فى درجة تذوقهم للأطعمة المختلفة، كذلك فإنهم أيضا يختلفون فى درجة تذوقهم للأعمال الفنية. فما يفضله شخص ما من صنوف

المأكولات قد لا يستسيغه شخص آخر، وما يقبل عليه هذا قد يرفضه ذاك ويرجع اختلاف هذه الاستجابة للطعوم بين شخص وآخر إلى عوامل عديدة منها الحالة المزاجية، والحالة النفسية والحالة الصحية والجسمية، ومنها أيضا اختلاف البيئة والعادات، ومنها أيضا التعاليم الدينية وكثير غيرها من العوامل التى تؤثر فى درجة تذوقنا للطعام وفى عمليتى قبوله أو رفضه. وهكذا أيضا نفس الحال عند تذوقنا الجمالى لكل صور الجمال سواء فى الطبيعة أم فى الفن.

## القرآن ... والحواس أدوات التذوق:

التذوق الفنى ـ على ضوء ما سبق ـ هو حالة وجدانية تجمع بين الوعى والشعور واللاشعور فى آن واحد. وإن كانت المحصلة النهائية لهذه العملية العقلية والنفسية المركبة تبدو فى الشعور اللحظى بالقبول أو الرفض، بالارتياح أو الانقباض، بالرضى أو السخط بالإمتاع أو الامتناع.

وتمر عملية الاستجابة الجمالية بعدة مراحل أولها الإدراك الحسى للموضوع الجمالى وذلك عن طريق الحواس الإنسانية الخمس المعروفة، ثم يتم ترجمة هذه الموجات الحسية عن طريق المخ إلى مدركات عقلية، ترتد مرة أخرى فى صورة الأحاسيس والانفعالات.

ومن هنا ندرك أهمية الحواس الإنسانية وسلامتها ودربتها على الإحساس الجمالى. إذ بدون حاسة البصر لا ندرك جمال الأشكال والألوان، وبدون حاسة السمع لا ندرك جمال الأصوات والأنغام، وبدون حاسة الشم لا ندرك جمال الروائح ... وهكذا ...

وفى هذا المجال يخاطب القرآن الكريم فى الإنسان حواسه المختلفة بصراً وسمعاً ولمساً وذوقاً، وذلك ليتدبر عن طريقها قدرة الله فى خلق هذا الكون ويتأمل جمال ظواهره ومخلوقاته وكائناته، وذلك باعتبار أن هذه الحواس هى الجسر الذى تعبر عليه الخبرات من البيئة إلى الإنسان إذ يدرك عن طريقها كل ما يحيط به من معان وأفكار ودلالات ومضامين.

يقول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: آية ٥٢ .

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ... ﴾(١).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾(٢).

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾(٣).

ولما كانت الرؤية هى الوسيلة الأولى للإدراك عند الإنسان فلقد خاطبها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة، ليلفت نظره لتدبر الكون والخلق. وكانت صيغة الاستفهام خير سبيل إلى ذلك، حيث تبدأ الآيات بكلمة (ألم تر) حيث تكرر استخدامها فى بدايات إحدى وثلاثين آية، على حين ترددت اشتقاقات الفعل الثلاثى (رأى) من صيغ ومصادر فى الآيات القرآنية مائتى وثمان وسبعين مرة فى مواضع مختلفة وبمعان متعددة.

أما التوجيه بالطلب المباشر للتدبر والتفكر والتأمل فلقد كان من المولى عز وجل بصيغة فعل الأمر (انظر) فيقول تعالى :

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾(٤).

ولنا أن نتوقف قليلا أمام هذه الآية حيث تستعرض ما يؤكل من ثمار ولكن الآية لا تقول : كلوا من الثمر ولكن تخص النظر بالذات لتوجيه الرؤية بعيون مفتوحة متأملة إلى الجمال كى تستمتع النفس بهذا الجمال، لان المعرض هنا هو معرض جمال الطبيعة والقدرة القادرة وراء إبداع هذا الجمال.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾(٥).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾(٦).

وغير هذه الآيات أربع وعشرون آية أخرى ورد فيها فعل الأمر (أنظر) وربط القرآن

---

(١) سورة يوسف: آية ٨٧ .
(٢) سورة مريم: آية ٩٨ .
(٣) سورة الأنبياء: آية ١٢ .
(٤) سورة الأنعام: آية ٩٩ .
(٥) سورة البقرة: آية ٢٥٩ .
(٦) سورة العنكبوت: آية ٢٠ .

الكريم بين حاستى السمع والبصر _ باعتبارهما أكثر الحواس أهمية وفاعلية فى الإدراك الحسى _ مقدما السمع عن البصر حيث تمتاز الحاسة السمعية عن الحاسة البصرية بأنها الأكبر قوة والأوسع مدى، والأكثر إمكانات، والأسبق خلقا.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾(١).

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾(٢).

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٣).

وإذا كانت الأذن هى أداة السمع، والعين هى أداة النظر، فقد خاطب القرآن الكريم الأذان والعيون فى الإنسان عند وصف الإدراكات الحسية المرتبطة بهما باعتبارهما الأساس والعلة والسبب فى حدوث هذه الإدراكات.

يقول تعالى عن العيون:

﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ (طه: ١٣١).

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ (الكهف: ١٠١).

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ (آل عمران: ١٣).

ويقول تعالى عن الأذن كأداة لحاسة السمع:

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ (البقرة: ١٣١).

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (الكهف: ١٣١).

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الحج: ١٣١).

وأما حاسة اللمس فقد جاء ذكرها فى القران الكريم فى مجالات استخدامها للتميز الحسى بين المحسوسات من مواد وأجسام فى مختلف المواقف الحياتية وإدراكها إدراكا حسيا بمختلف ملامسها من نعومة وخشونة وبرودة وسخونة وغيرها.

فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء: آية ٣٦ .

(٢) سورة هود: أية ٢٠ .

(٣) سورة النحل: آية ٧٨ .

(٤) سورة الإنعام: أية ٧ .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾(١).

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾(٢).

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾(٣).

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾(٤).

ومن المعروف أن حاسة اللمس فى الكائن الحى أداتها الجلد حيث تنتقل الإدراكات الحسية من المثير إلى الجسم عن طريق الشعيرات الحسية الموجودة على سطح الجلد. ثم تجرى ترجمتها فى المخ إلى مدركات عقلية تنعكس أثارها وردود أفعالها ثانية فيتم الإحساس.

ولهذا فلقد أشار القرآن الكريم إلى دور الجلد فى الإدراك الحسى حيث يقول سبحانه:

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣).

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ (الحج: ٢٠).

ولا تقف عظمة القرآن الكريم وبلاغته فى تصوير الحواس البشرية وأثارها فى أدراك المحسوسات فى هذا الكون وفى هذه الحياة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما صور المعنويات من أخلاقيات وعبادات وعقائد تصويراً حسياً فى كثير من الآيات. منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣).

حيث جعل الجلود تتصف من حلاوة الإيمان باللين والرقة والخشوع وتلك هى صفات القلوب المؤمنة.

وخاطب القرآن الكريم حاسة الذوق سواء بمعناها المعجمى كحاسة لتذوق طعوم

---

(١) سورة الجن: أية ٨ .
(٢) سورة النساء : آية ٤٣ .
(٣) سورة آل عمران: أية ٤٧ .
(٤) سورة النور: آية ٣٥ .

المواد المختلفة أو بمعناها الاصطلاحى كادراك وفهم للمواقف الحياتية بما تحتويها من معان وأفكار ومشاعر.

يقـــول تعـــالى : ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(١).

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾(٢).

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٣).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾(٤).

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾(٥).

وينتقل القرآن الكريم من تناول حاسة الذوق كإحدى وسائل وأدوات الإدراك الحسى المباشر والاحساس بها شعورياً سواء على مستوى المواقف ومعانيها والانفعال بها، أو على المستوى المباشر كادراك حسى لطعوم المواد المختلفة ومذاقها الحسى.. حيث يتناول القرآن بالوصف التفصيلى هذه الطعوم من حلاوة أو مرارة أو ملوحة الخ.

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾(٦).

﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾(٧).

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾(٨).

وتتجمع كل هذه الحواس الإنسانية، وتتضافر ردود أفعالها من أحاسيس ومشاعر وانفعالات ومدارك حسية مكونة محصلتها النهائية وهى الشعور باللذة، تلك اللذة الحسية التى سبق وأن نوهنا إلى إنها الخطوة الأولى للشعور بالارتياح والسرور والرضا وهى مقومات اللذة الجمالية وركائز الشعور الجمالى.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٣٩ .
(٢) سورة النبأ: آية ٢١ ـ ٢٤ .
(٣) سورة الدخان: آية ٤٨ ـ٤٩ .
(٤) سورة هود: آية ٩ .
(٥) سورة الروم: آية ٣٦ .
(٦) سورة محمد: آية ١٥ .
(٧) سورة فاطر: آية ٢١ .
(٨) سورة القمر: آية ٤٦ .

وعن هذه اللذة الحسية يقول الله تعالى :

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾(٢).

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾(٣).

وهكذا خاطب القران الكريم الحواس المختلفة بشكل مباشر أو بالاستعارات والتشبيهات والكنايات وفنون البديع، حيث قصد الحاسة نفسها وصفاتها ومدلولاتها، أو استعان بها فى البلاغ بما ورائها من المعانى والمرامى والمقاصد.

فكانت آيات القرآن الكريم فى هذا الميدان صوراً نظرية وسمعية ولمسية وذوقية وحركية تستمد قوتها من التصوير المحسوس فى جميع أشكاله، التى تفيض حياة، وتشع جمالاً وجلالاً، وتؤول هذه اللذات الحسية فى النهاية إلى اللذات الجمالية.. تلك هى شعور الإنسان بالراحة و الرضى، والسرور والسعادة.. وهذا ما أشار إليه القران الكريم كمحصلة للجمال.

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾(٤).

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾(٥).

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾(٦).

---

(١) سورة الزخرف: أية ٧١ .
(٢) الصافات: أية ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣) سورة محمد: أية ١٥ .
(٤) سورة هود: أية ١٠٥ .
(٥) سورة الإنشقاق: أية ٩ .
(٦) سورة الإنسان : أية ٩ .

أن الهدف الأساسى من تنمية التذوق الفنى هو مواجهة الأمية الجمالية حتى يمكن إيقاظ إحساس الفرد ليصبح واعيا بالجانب الجمالى للبيئة التى يعيش فيها.

وإذا لم نسعى إلى محو الأمية الفنية فأننا حتما سنحصل على مجتمع فاقد الذوق. إن عدم الاهتمام بتربية الأفراد تربية جمالية معناه أن لدينا أفراد فاقدى الحس لهم عيون ولكنهم لا يبصرون.. والأعمى المبصر خير لنفسه ووطنه من المبصر الأعمى. وعلى ذلك لابد أن ينال كل فرد نصيبه من الثقافة الفنية ومن التدريب والممارسة والخبرة الجمالية التى تكونه تكوينا تذوقيا كافيا يستطيع معه أن يترجم كل ما حوله ترجمة استمتاعية، تمكنه من أن يعدل فى البيئة لتكون على مستوى أعلى من الجمال، كما تعدل البيئة فيه وتمنحه السلوك الجمالى وتهبه القدرة على الاستمتاع بالجمال.

وثقافة الفن والجمال لا تعنى ثقافة المعلومات أو العلم فى مجال التخصص أو ارتقاء الإنسان أعلى المناصب الوظيفية أو امتهانه بأسمى المهن. فكم نرى من أفراد فى مجتمعاتنا النامية يشتغلون بارقى المهن والدرجات الوظيفية أو يتخصصون فى أدق فروع العلم ولكنهم للأسف يعانون من الأمية الجمالية والجهل الفنى فلا يستطيع الواحد منهم أن يتذوق لوحة مرسومة أو قصيدة شعرية أو قطعة موسيقية، بل لا يستطيع أن يستجيب جماليا لمنظر يمر به فى طريقة أو موقف يصادفه فى حياته.

لذلك فأننا ينبغى أن نكوّن عند الأفراد المعيار الجمالى الذى يساعدهم على تمييز الغث من الثمين والجميل من القبيح، والشئ الذى ترتاح إليه النفس وتقبل عليه برضى من تلك الأشياء التى تمجها النفس وترفضها الحواس ولا ترتاح إليها ولا تقبل عليها. وتكوين هذا الحس الجمالى هو ما نسميه بالتربية الجمالية.

فالتربية الجمالية تعنى رعاية النشء منذ حداثة سنهم لتذوق الجمال والاستجابة له والعيش فى كنفه والعمل على إيجاد ظروفه واستخدامه وممارسته فى كل مرافق الحياة ومواقفها.

ولكن نبدأ بأولى الخطوات على طريق تربية النشء التربية الجمالية المرجوة، يجب أولا وقبل كل شيء أن نعمل على إيجاد البيئة الجمالية التى يترعرع فيها هذا النشء وفى هذا الصدد يرى (أفلاطون) «أن المجتمع يجب أن يزود بالموهوبين من الفنانين الذين يشكلون الحياة ويبدعون البيئة الجمالية التى يترعرع فيها النشئ، فيتعود أن يشم

النسمة الصافية والعطر الفواح مما حوله منذ نعومة أظافره، حتى إذا شب ونسى المصدر نفسه فلا بد له أن يتعرف على مسببات الجمال الذى لازمه حين كان صغيراً ويصبح احد رواده الذين يعيشون به فى الكبر. إنه حينما يتعود الجمال سيلفظ القبيح ويستهجنه ويثور عليه ويسعى إلى استبداله بالجميل فحينما تتوافق روح جميلة مع شكل جميل ويشكل الاثنان فى قالب واحد سيكون بمثابة أجمل المرئيات بالنسبة إلى الشخص ذى العين التى تستطيع أن تراه.

وكان الفليسوف اليونانى ( أفلاطون ) قد وضع منذ ما يقرب من أربعة وعشرين قرنا مضت فكرة رائدة للتربية الجمالية بمفهومها الشامل، فقد اشترط (فى جمهوريته) ان يكون الفنانون من النوع الموهوب ليستطيعوا تشكيل ذوق المواطنين فى كل مرافق الحياة على مستوى رفيع.

أما الفنانون الذين لا يملكون هذه الموهبة فيطردهم أفلاطون من جمهوريته لأنهم سيتصدون للذوق العام بلا كفاءة وسيفسدونه.

إن أول ما يهدف إليه هذا النوع من التربية هو تنمية الإحساس بالجمال وإدراكه وتذوقه سواء فيما خلقه الله فى الكون أو فيما ابتدعته أنامل الإنسان الفنان فأثرى به الحياة فى مختلف وجوهها وجوانبها.

ولقد عنى دين الإسلام الحنيف منذ انبثاق دعوته بتربية النواحى الروحية وتنمية الأحاسيس الجمالية والمشاعر الذوقية لدى الإنسان المسلم ولفت الأنظار إلى نواحى الفن والجمال فى هذا الكون بل حث المسلم على الاستمتاع بالمخلوقات وزينتها إلى جانب ما لها من نفع له حتى يدرك الإنسان أن الحياة الإنسانية الصحيحة لا تقوم فقط على مجرد الماديات والضروريات ولا تهتم بمجرد النواحى النفعية فحسب بل لينبهنا إلى أن هناك جوانب أخرى فى الحياة لا تتصل بالماديات أو النفعيات فى شئ ولكنها تهدف إلى ما هو أسمى من ذلك، تهدف إلى تنمية الناحية الوجدانية التى تحقق للحياة إنسانيتها وسموها عن الحيوانية المحضة.

وهذه اللفتة الطيبة من الإسلام نحو الفن والجمال لها مغزاها العظيم لتربية الذوق وتهذيبه حتى يرقى إلى حب الجمال.ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الغاية؟. لم يتركنا الإسلام نتخبط فى سبيل تحقيقها بل نبهنا إلى أروع السبل. لبلوغها حيث أوضح لنا الإسلام أن هذه الغاية أنما تتحقق عن طريقين:

ولعل أول السبل إلى ذلك هو أن يتعامل المسلم مع الجمال تعاملا مباشراً ولصيقا لنفسه وكيانه عقلاً وروحاً ووجداناً، حيث يجعل الجمال منهجه ورائده وسلوكه فى مأكله ومشربه وملبسه، وتعاملاته وتصرفاته مع الآخرين، بل وفى شتى شئون حياته.

وها هو القرآن الكريم فى الكثير من آياته (*) يحث المسلم على كل هذه الاستجابة الجمالية الاستمتاعية سواء فى مرحلة المتعة البحتة بالجمال كشكل وكحس، أو عندما يتعدى الوعى الجمالى هذه المرحلة إلى مرحله أكثر رقياً عندما يتحول الجمال إلى سلوك إنسانى عام، ويتسع الجمال فى كتاب الله والدعوة إلية فى آياته الكريمة لتكون سمه عامة فى شخصية المسلم وأسلوبا مثالياً للسلوك الإنسانى.

وأما ثانى الطرق التى نبهنا إليها الإسلام لتهذيب النفوس وتنمية المشاعر الوجدانية والارتقاء بالأذواق وتربيتها جمالياً، هو أن هذه الغاية إنما تتحقق برؤية مظاهر الجمال فيما أبدعه الله فى الكون وفيما سوته يد الإنسان، وذلك بتأملها تأملا واعياً وتدبرها وإمعان النظر فيها ومحاوله البحث للوقوف على سر الجمال وفيما يتجلى فيها من تكوين محكم وتنسيق بديع، ونظام متقن فى التركيب، وفيما يشع فيها وما تضفيه حولها من مؤثرات تسر الحواس وتبهج النفوس.

ولم يقف القرآن الكريم بالمسلم عند حدود الحث والتشجيع، وتوجيه النظر، والدعوة إلى التأمل فى آيات الله فى الكون واستشعار ما تنطوى عليه من الجمال والجلال. بل أن الله تعالى يسخر من الذين ينظرون إلى الأمور بسطحية وبشكل عابر لا تتعمق فيها أبصارهم إلى بصائر.

فيقول عز وجل:﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾(١).

ثم يعود القرآن الكريم فينكل بالذين لا يستخدمون حواسهم ويصفهم بالحيوانات التى تحركها غرائزها.

---

(*) سيعرض الباحث إلى هذه الآيات تفصيليا فى موضع تال من البحث .

(١) سورة الأعراف: أية ١٩٨ .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

هكذا حرص الإسلام الحنيف على تهذيب النفوس من الغرائز وترقية الأحاسيس والمشاعر والسمو بها، وتربية المسلم تربية جمالية ترتقى بذوقه وتسمو بسلوكه فمهد بذلك سبيل الوصول إلى المثل الأعلى فى الإنسان.

وبهذه التوجيهات فتح الإسلام الأذهان إلى أهمية الفن والجمال فى حياة البشر، فقد حرص الإسلام على أن يجعل من المسلمين فنانين ومتذوقين ليكونوا حملة لمشاعر الجمال فى هذه الدنيا يبرزون ما فيها من كمال، وجلال، وجمال.

## الجمال الحلال فى القران الكريم

قال رسول الله ﷺ:

«أن الحلال بين وان الحرام بين، وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، الا وان لكل ملك حمى: ألا وإن حمى الله محارمه،ألا وان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله»

(رواه البخارى ومسلم عن ابى عبد الله النعمان بن بشير رضى الله عنهما )

ولقد كان القران الكريم فى هذا تبيانا لكل شئ موضحاً. فى تعاليمه وآياته. بشكل قاطع ومباشر حدود هذا وذاك محللا الحلال محببا فيه، داعياً إليه، ومحرما الحرام ناهياً عنه محذراً منه.

قال تعالى فى بيان الحلال وتوجيه النظر إليه والحث على إتباعه واستثماره:
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ..﴾(٢).

(١) سورة الأعراف: أية ١٧٩ .
(٢) سورة البقرة: أية ١٦٨ .

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(١).

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاس لَّهُنَّ..﴾(٣).

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾(٤).

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾(٥).

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(٦).

ثم يخاطب القران الكريم الناس ويدعوهم إلى إتباع الحلال وعدم تحريم ما احل الله لهم بل ويسخر من هؤلاء القوم فى قوله تعالى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾(٧).

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾(٨).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾(٩).

وإذا كان القران الكريم لم يترك كبيرة ولا صغيرة ـ من أمور الدين والدنيا إلا أحصاها وتناولها وأشار إليها. فماذا يرى الإسلام والقرآن الكريم فى موضوع الجمال من حلال أو حرام ؟

قال رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقى عن أبى سعيد : « إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويبغض البؤس والتباؤس» .

وفيما رواه البيهقى عن طلحة بن عبد الله :

---

(١) سورة المائدة: أية ٨٨ .
(٢) الانفال: أية ٦٩ .
(٣) سورة البقرة: أية ١٨٧ .
(٤) سورة المائدة أية ٤ .
(٥) سورة المائدة: أية ٩٦ .
(٦) سورة البقرة: أية ٢٧٥ .
(٧) سورة يونس: أية ٥٩ .
(٨) سورة الأنعام: أية ,١٤٠
(٩) سورة المائدة: أية ٨٧ .

«الله جميل يحب الجمال، جواد يحب الجود، ويحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها» (١)

والإنسان أرقى مخلوقات الله، وخليفته فى الأرض، ذلك المخلوق الذى أكرمه الله وكرمه وفضله على العالمين، وسما بغرائزه ومشاعره ليرقى به من الحيوانية إلى أعلى مراتب الإنسانية، ذلك الإنسان هو أجدر مخلوقات الله بصفة الجمال فخلقه الله سبحانه فى أحسن خلقه وصوره فى أجمل صورة، يقول تعالى :﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٢).

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾(٣).

ثم أمره بالتجمل وحثه على التزين ليبدو فى صورة جميلة وهيئة متناسقة تريحه نفسياً وتسر الناظرين إليه فقال تعالى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾(٤).

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾(٥).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾(٦).

ويحث القران الكريم على الكسب الحلال والإنجاب الحلال لينعم المسلم بما له وعياله فى حياة هنيئة سعيدة قوامها جمال المادة والروح والسلوك فيقول تعالى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٧).

ويجتمع المال الحلال والخلف الصالح مع الإيمان بالخالق حتى يكتمل الوجه الجميل للحياة. فقد بين الله جمال الإيمان فى صدر المؤمن، فيقول تعالى :

---

(١) السفساف: الحقير والردئ من كل شئ وعمل ( عن المعجم الوجيز ص ٣١٣).

(٢) سورة الانفطار: آية ٧، ٨ .
(٣) سورة غافر: آية ٦٤ .
(٤) سورة الأعراف: آية ٣١ .
(٥) سورة النور: آية ٦٠ .
(٦) سورة النور : آية ٣١ .
(٧) سورة الكهف: آية ٤٦ .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(١).

هذا هو الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن صورة وأجمل هيئة وجعل الجمال والزينة منهجه الذى أحله الله، وحثه عليه وطمأن قلبه إليه حيث يقول سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(٢).

ويسعى الإنسان فى هذه الأرض ليحيا ويكد ويعمل ويمارس عباداته ويتأمل خلق الله فى هذا الكون الذى خلقه وصوره أحسن تصوير وأبدعه وزينه بلمسات الإبداع الالهى من الحسن والبهاء والبهجة والجمال.

يقول الله تعالى :

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٣).

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾(٤).

﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾(٥).

وخلق الله سبحانه وتعالى كل ما فى الأرض من مخلوقات لتكون فى خدمة الإنسان مسخرة لتسيير حياته ورخائه وراحته. وهذا التسخير ليس من أجل المنفعة المادية فحسب بل من أجل الوفاء بحاجات الإنسان النفسية والروحية والوجدانية حيث الاستمتاع بجمالها وزينتها. أيضا قال تعالى : ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(٦).

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾(٧).

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾(٨).

---

(١) سورة الحجرات: آية ٧ .
(٢) سورة الإعراف: آية ٣٢ .
(٣) سورة الكهف: أية ٧ .
(٤) سورة الحجر: أية ١٦ .
(٥) سورة ق: النمل ٦٠ .
(٦) سورة النحل: آية ٥ .
(٧) سورة النحل : أية ٨ .
(٨) سورة النحل: آية ١٤ .

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(١).

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾(٣).

## القرآن... وجمال الألوان

اللون صفة طبيعية من صفات الأشياء والأحياء التى خلقها الله سبحانه وتعالى، كما انه من عناصر التشكيل الأساسية فى العمل الفنى.

ويرتبط اللون بحياة الإنسان ارتباطا وثيقاً. فالألوان تحيط بنا فى كل ما حولنا من مخلوق ومصنوع. أما اللون فيما خلقته قدرة الله فنراه فى أرجاء هذا الكون وما يحويه من كائنات ومخلوقات، على الأرض وما فى جوفها، وفى السماء وما تحتها وفى البحار وما فى أعماقها ... نراه فى الزهر والشوك والشجر، فى النبات والحب والثمر، فى الشمس والنجم والقمر فى الرمل والصخر والجبل، نراه فى الداب والزاحف، فى السابح والطائر، فى الراكض والراقد، فى الحافر والناقر، فى المحلق والمتسلق، فى كل كائن صاهل أو هادل، زاعق أو ناهق، أعجم أو ناطق .... نرى اللون فى الصبح والليل، وفى الغسق وعند الشفق، فى كل ما أبدعته قدرة الخالق، وكل ما أودعته يد الله من لون فى الكون.

أما اللون فى حياتنا المصنوعة فنراه فى كل ما صنعه فكر الإنسان من صنائع وما أبدعته ريشة الفنان من بدائع، وكل ما خطته ريشته المبدعة وشكلته يده من صنوف الفن الجميل، وفى كل ما نستخدمه من الفنون الحياتية فى مأكلنا وملبسنا ومسكننا وفى جميع نواحى حياتنا.

والألوان على اختلافها وتنوع درجاتها هى بمثابة رموز وحروف تقرأها عين الإنسان. ومن المعروف علمياً أنه لا يمكن رؤية اللون فى الظلام حيث يرتبط اللون ارتباطا وثيقا

---

(١) سورة الحج: آية ٢٣ .
(٢) سورة الرحمن: أية ٢٢ .
(٣) سورة النحل: أية ٨٠ .

بالضوء فلا وجود له إلا به. «فاللون هو ذلك التأثير الفسيولوجى الناتج على شبكية العين سواء كان ناتجاً عن المادة الصبغية الملونة أو عن الضوء الملون، فهو إذن إحساس وليس له أى وجود خارج الجهاز العصبى للكائن الحى» (١)

«وهو صفة أو مظهر للسطوح التى تبدو لنا نتيجة لوقوع الضوء عليها. واللون قدرة موجبة تؤثر فى جهازنا العصبى، فهو شعر صامت نظمته بلاغة الطبيعة وبيانها هو كلامها ولغتها، وللون عامل كبير فى تقدير شكل الأشياء وحجومها وفى تقدير الأبعاد والمسافات» (٢)

ونحن ندرك العالم من حولنا باعتباره مكوناً من ألوان فى صورة أشياء، وهذا يذكرنا بما فعله عالم الطبيعة (رود) قديماً عندما نظر إلى الطبيعة من وضع مقلوب فلم يشاهد الأشكال ولا المسافات بل رأى المناظر وهى تتحول إلى بقع لونية ناصعة ونقية متجاورة بعضها إلى جانب البعض. أننا إذن نتخلص من الأشكال وندرك الألوان فى حد ذاتها.

وإذا كانت العين تعمل بفطرتها، وإذا كان اللون هو الخاصية الأولى للأشياء، فان الاستجابة الجمالية للأشياء تبدأ بالاستجابة لألوانها وذلك انطلاقاً من أن الخصائص الجمالية للتكوينات البصرية هى ما تبحث عنه العين أولاً ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الإحاطة بموضوع الشىء المدرك ومضمونه. حيث أن الهدف الجمالى فى الإدراك البصرى يسبق الهدف المعرفى، وذلك على حد ما أكده العالم (نيودين) وزملاؤه.

أن وجود اللون فى كل ما حولنا فى الكون يعد من كبريات النعم فى حياة البشر فلم تقف وظيفة اللون فى حياة الإنسان على وصف الأشكال وتحديد هيئاتها وإعطائها هويتها ومدلولاتها فقط، بل تعدت وظيفة اللون فى الحياة إلى وظيفة اكبر وأعظم، وأكثر أهمية واعتباراً. فان اللون يصبغ الحياة بصبغة البهاء والحسن ويطبعها بطابع الجذب والإثارة ويلقى عليها ظلالاً من البهجة والفتنة ويعطى للأشياء مظهرها الجمالى الأخاذ ويضفى على الوجود كله لمسة الجمال، ذلك الجمال الذى خلق الإنسان على حبه، وطبع على الانجذاب إليه وفطرت غريزته على استشعاره وعشقه والاستجابة له

---

(١) يحى حمودة: **نظرية اللون**، ص٥.

(٢) أحمد زكى بدوى: **معجم مصطلحات الدراسات والفنون الجميلة**، ص٧٣ .

والافتتان به وانفعال وجدانه بنشوته واستمتاع حواسه بلذته، فتسمو دائما نفسه، وترقى دوما أحاسيسه، وتسعد أبداً حياته.

والألوان لها تأثيرها السيكلوجى على النفس البشرية حيث يشعر الإنسان بالراحة والطمأنينة أو الحزن والاضطراب والكآبة عند مشاهدته للألوان المختلفة. كما أن للألوان كذلك تأثيرها على الجانب الفسيولوجى ووظائف الأعضاء عند الإنسان. فقد أثبتت بعض الشواهد أن الإشعاعات اللونية التى تدخل إلى مركز العصب البصرى فى مخ الإنسان تؤثر بصورة مباشرة على الغدة النخامية التى تتحكم فى إفرازات الغدد الصماء ومنها هرمونات الحالة العاطفية والنفسية والمزاجية للإنسان.

وتتعدد مجالات استخدام الألوان فى حياتنا حتى إنها تعدت المجالات المادية لتشمل أيضا المجلات الأدبية والدينية والعقائدية.فلقد ترددت مسميات اللون فى الفنون غير البصرية كالشعر كمكون أساسى للصورة الشعرية وبالتالى فى التأثير الشعرى على مستوى الوصف أو التشبيه أو الرمز. كما ترددت الألوان واستخداماتها فى مختلف الثقافات والحضارات على مر العصور، حيث ارتبطت الألوان بمختلف الأمور الفلسفية والأفكار الاجتماعية والمفاهيم السحرية والطقوسية مما يزخر به الموروث الشعبى فى هذا المجال.

أما التراث الدينى والعقائدى فيزخر بالكثير من الإشارات والمضامين والدلالات التى تربط الألوان بمختلف المفاهيم والمعانى الوصفية والتشبيهية على سبيل التبجيل أو التحقير، وذلك مثلما ورد فى كثير من المواضع فى التراث الدينى الهندى والمصرى القديم والاغريقى كما تزخر الكثير من آيات الكتب المقدسة بمسميات الألوان المختلفة بمدلولات ومعان مختلفة أيضاً.

## أثر الألوان فى النفس فى رأى المظفر:

على الرغم من أن الفنان العربى قد استخدم اللون فى تصويره وزخارفه استخداما جماليا صرفا، فان اللون عند العرب قد حمل إلى جانب قيمته التشكيلية مدلولات أخرى نفسية وفلسفية. فنرى أن الألوان عندهم لها تأثيرها المباشر فى نفس الإنسان إلى جانب ما تعكسه من معان. ويقول المظفر ابن قاضى بعلبك المتوفى عام ٦٦٠هـ فى

كتابه مفرج النفس [1] : ( فالنفس تبتهج بما كان فى الأجسام له اللون الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض، فنظر هذه يوجب راحة النفس ولذة القلب وسرور العقل ونشاط الذهن وتوفر القوى، وانبساط الأرواح ... والألوان السود والزرق والكمد وما شاكل ذلك وما يتركب منها تكدر الأرواح، وتعمى القلوب وتولد الأخلاط السوداوية وما يحدث عنها من الفكر الردية والهموم المودية والأحزان الملازمة ).

وهكذا كان للألوان عند العرب صفات وقيم وآثار، فاللون الأصفر هو لون الشمس المحرقة، وهو لون الصحراء اللانهائية التى تجمعت فيها خيالات العرب وأحلامهم. واللون الأزرق هو لون السماء لون المحبة والقدسية والطهارة، والسلام والطمأنينة، والمصير والجنة، والعبادة والصلاة، فهو شفاف كالأثير، شامل كمفهوم القدرة الإلهية.

«أما اللون الأخضر فهو لون الأرض التى باركتها السماء، وهو لون النعمة والرضى ولون الماء والهواء وشجرة الحياة» [2]

ولعل هذا المفهوم لقيمة اللون وتأثيره على النفس البشرية المتذوقة له يرتبط ارتباطا وثيقا بما أسفرت عنه أبحاث علماء النفس التجريبيين وعلى رأسهم جوستاف فخنر (١٨٣٤ - ١٨٨٧ ) مؤسس الاستاطقيا التجريبية، وبصفة خاصة تلك التجارب التى أجراها العالم الفرنسى (فيرى) على تأثير الألوان على الجهاز العضلى والدورة الدموية عن طريق قياس ضغط اليد. ثم تجارب (بولو) لتصنيف استجابات الأفراد إلى أنواع وفقا لاستجابتهم للألوان والتى خرج منها بتصنيف هذه الاستجابات إلى أربعة أنواع هى الموضوعى، والسيكولوجى، والارتباطى، والخلقى.

## الألوان عند التوحيدى:

ومن وجهة نظر أخرى ارتبطت الألوان عند العرب بالكواكب ومعانيها العقائدية وهذا الترابط بين اللون والكواكب قديم يرجع إلى العهد الرافدى حيث كان اللون الذهبى يرمز إلى الشمس (شماس) واللون الفضى يرمز إلى القمر (نانار)، والأبيض يرمز

---

(١) مخطوط رقم ٤٨٣ طباعة من ٤ب إلى ٧أ دار الكتب المصرية ـ كشفه الدكتور بشر فارس وأشار إليه فى كتابه (سر الزخرفة الإسلامية).

(٢) د. عفيف بهنسى: **دراسات نظرية فى الفن العربى**، ص ٤١ .

إلى الزهرة (مردوخ) والأزرق لعطارد والأسود لزحل (كيوان)، والقرمزى للمريخ، والارجوانى للمشترى (عشتار) [١]

ولقد ذهب أبو حيان التوحيدى أيضا إلى الربط بين الألوان والكواكب والأبراج الفلكية فيقول أن أصحاب النجوم يجعلون السواد لزحل، والحمرة للمريخ، والخضرة للمشترى، والزرقة لزهرة، والصفرة للشمس، والبياض للقمر، والتلون لعطارد [٢]

ولعل التوحيدى لم يكن الفيلسوف الاسلامى الوحيد الذى يربط بين اللغة الفنية (ألوان أو أنغام) والكواكب والبروج الفلكية. فلقد خلفه الفارابى[٣] ليربط بين الموسيقى والكواكب أيضا. حيث ربط ما يسميه المقامات الاثنا عشر، والأوزان السبع من جهة وبين الكواكب السماوية والبروج الفلكية من جهة أخرى.

**الإنسان العربى واللون:**

وقد عرف الإنسان العربى للون أهميته قبل الإسلام وبعده، ورغم ما شاع عند كثير من المهتمين بالفنون العربية الإسلامية من المستشرقين والنقاد الأجانب ومن تأثر بهم من النقاد والباحثين والدارسين العرب، ممن يرون مثلاً أن الألوان عند العرب قليلة، وان العربى لم يعرف تعدد درجات اللون، وعلى سبيل المثال، يقول الدكتور عفيف بهنسى فى كتابه دراسات نظرية فى الفن العربى : (ففى الوقت الذى لم تتجاوز فيه ألوان السجاد الغربى خمسة ألوان، كان عدد الألوان ودرجاتها فى الغوبلان مثلا ثلاثمائة وخمسين لونا)[٤] إنها قضية شائعة ولكنها لم تقم على دليل فعلى، يعتمد على الإحصاء، ولكن الدكتور عبد الحميد إبراهيم يقدم لنا كتاباً رائعاً، فريدا من نوعه فى المكتبة العربية، بعنوان [٥] : قاموس الألوان عند العرب : إن هذا القاموس يقدم تسعة وثمانين وأربعمائة لوناً من الألوان الشائعة، هى فى مجملها تثبت ثراء الألوان عند

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) التوحيدى : **الإمتاع والمؤانسة**، ج٢، ص١١١.

(٣) محمد أبو النصر الفارابى(٣٥٩هـ ـ ٤٣٩هـ) لقب المعلم الثانى حيث اعتبره المؤرخون أكبر الفلاسفة بعد أرسطو وأعظم ناشر لآرائه وشارح لكتبه برز فى الرياضيات والطب والعلوم والموسيقى التى كتب فيها عدة مولفات هامة أبرزها «الموسيقى الكبير».

(٤) عبد الحميد إبراهيم: **قاموس الألوان عند العرب**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٨٩ .

(٥) عن: أحمد رأفت على : الرسم بالألوان فى القرآن، مرجع سابق، ص ١٢٢ .

العرب من ناحية، وتنبههم لدرجات اللون الواحد من ناحية ثانية، وتشير إلى دقة ملاحظتهم من ناحية ثالثة؛ تلك الدقة التى تفطن إلى البياض على جردان الحمار والى الدهسة فى لون التربة. أن من يراجع مواد (بيض ـ حمر ـ خضر ) فى هذا الكتاب يدرك مدى التنبه لتعدد درجات اللون الواحد، فهناك ابيض يقق ولهق وصرح ولياح ووابض وحصنى وقهب، وهناك أسود حانك وحالك وسمكوك وحلبوب، وهناك احمر قان، وذريحى، وبحرانى، وقاتم، وناصع، ويانع، وناكع، وسلغد، وأسلغ، وأقشر وعاتك، وغضب، وأكلف، وفقاعى، وأحمر كالقرف وهو الاديم الأحمر،، أو كالصربة وهى الصمغة الحمراء، أما كالمصعه وهو ثمر العوسج، وهناك اخضر اصم واحوى وأدغم وأطحل وأورق. وأن من يراجع مادة غرر فى هذا الكتاب، يدهشه تنبه العربى لأشكال الغرة التى تميز فرساً من آخر، وإطلاقه الأسماء المتعددة على هذه الغرر، فهناك السائلة والوتيرة والشمراخ والعصفور والمبرقعة واليعسوب والشادخة واللطيم والمغرب والمعرقى والشامطة والمتمصرة. والعربى يرى ألوان الجراد حسب أطوار نموه، فيعطى لكل حالة لوناً، ( الجراد أول ما يكون سرو، وهو أبيض، فإذا تحرك وأسود فهو دبى قبل أن تنبت أجنحته )، ويرى تغير ألوان التمرة، فيعطى لكل لون اسما فاذا اخضر حبه واستدار فهو ضلال. فإذا عظم فهو البر، فإذا احمرت فهى شقحة )، ويرى تغير ألوان نبات العرفج فيطلق عليه من الأسماء ما يناسب كل حالة فإذا مطر العوفج ولان عوده قيل : قدأرقط، فإذا ازداد شيئا قيل : قد أدبى، فإذا تمت خوصته قيل : قد أخوص ).

وقيل مثل ذلك فى ألوان الخيل والإبل والماشية، وفى ألوان الرمث والأرطى، والعشرق والسلم، وفى ألوان الجبل والبرق والسحاب والتراب ) (١)

أن الغربى لا يوغل فى التجريدات، ولا فى الخيال، انه يعتمد بالدرجة الأولى على عنصر التشبيه، وهو عنصر يستمده من الواقع يضع المشبه فى مقابلة المشبه به، قد يرى فى نبات العرفج أو فى شجر الرمث ما يشبه ألوان الجراد، فيقول : «أدبى الرّمث والعرفج إذا ما أشبه ما يخرج من ورقة الدّبى ، وقد يرى لحية الرجل حمراء، فيشبهها بالعرفجة ويقول كأن لحيته حزام عرفجة» «وقد يرى أنف الرجل أحمر، فيذكره هذا بنبات الطرثوث، فيقول له نكعة انفك كأنها نكعة الطرثوث»، وقد تعجبه الناقة

(١) عن: نفس المرجع السابق، ص ١٢٢ .

الحمراء فيشبهها بعروق الأرطاة، وهى شجرة معروفة» « حمر زاهية فى ثرى الرمال الممطورة فى الشتاء، تراها إذا انتشرت واستخرجت من الثرى، حمراء ريانة مكتنزة» . وهكذا نجد اللون يجرنا عن طريق التداعيات إلى معارف العرب وتصوراتهم للعالم المحيط بهم» (١)

ولما كانت الصورة الشعرية هى صورة حسية شكلية بالدرجة الأولى فان الشاعر يستخدم كل مفردات لغة الشكل ـ من لون وشكل وحركة ـ وملمس وضوء الخ فى رسم الصور الشعرية وعليه فان الشاعر بوجه عام والشاعر العربى كذلك لم يتوانى عن الاستعانة بكل ما فى الطبيعة من ألوان لتصوير لوحاته الشعرية، فى كل أغراض شعره وصفاً كان أم مدحاً أم هجاءً، وسواء فى وصف الطبيعة أم وصف محاسن محبوبته أم عندما نذهب إلى ابعد من ذلك فيخرج اللون من مدلوله الحسى الوصفى المباشر إلى إطلاقه على الأمور المعنوية والأفكار المجردة.

ولم يتخلى شعراء العرب عن هذه الوسيلة للتصوير اللونى سواء فيما قبل الإسلام فى عصور الجاهلية أو عند شعراء صدر الإسلام أو ما بعده.

ومن أمثلة ما ورد بآيات القرآن الكريم من صور وتشبيهات جمالية متعلقة بالألوان ما يلى:

قوله تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَاخْتلافُ أَلْسنَتكُمْ وَأَلْوَانكُمْ ﴾(٢).

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلفاً أَلْوَانُهُ﴾(٣).

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلفٌ أَلْوَانُهُ ﴾(٤).

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾(٥).

فلقد وردت كلمة «الألوان» فى الآيات السابقة بالمعنى اللغوى للون بظاهر اللفظ

---

(١) أحمد رأفت على: نفس المرجع السابق، ص ١٢٣ .

(٢) سورة الروم: آية ٢٢ . (٣) سورة النحل: آية ١٣ .

(٤) سورة فاطر: آية ٢٨ . (٥) سورة الزمر: آية ٢١ .

أحياناً، والمعنى المجازى للدلالة على اختلاف الأنواع والأشكال أيضا. ففى الآية الأولى تعنى اختلاف ألسنتكم فى اللغات واللهجات واختلاف ألوانكم بين البياض والسواد.

وفى الآية الثانية : أن الله خلق على سطح الأرض كثيراً من أنواع الحيوان والنبات والجماد وجعل فى جوفها كثيرا من المعادن المختلفة الألوان والأشكال والخواص. وفى الآية الثالثة : خلق الله من الناس والدواب والإبل والبقر والغنم مختلفا ألوانه فى الشكل والحجم واللون.

إما الآية الرابعة : فقد صور الله الألوان فى الأرض فى لوحة بديعة بترجمها الحس والخيال فى لقطات حية تقوم على ما يعرف تشكيلياً بمبدأ ( التنوع فى إطار الوحدة) حيث ترتسم لوحة الأرض الخصبة التى اخرج الله عليها الزرع الأخضر، ولكن هذا الزرع المختلف الأنواع لا يصطبغ. بنوع واحد من اللون الأخضر، فهناك درجات متنوعة ومتعددة من اللون الأخضر، فمنه الأخضر الفاقع، والأخضر الباهت والأخضر المائل إلى الصفرة، والأخضر المائل إلى الزرقة، ودرجات اللون الأخضر التى تتنوع بين الداكن والفاتح ... ثم هذه النباتات التى تصفر أوراقها بفعل كمية الضوء والماء، ثم أخيراً هذه الزروع عندما تميل إلى الذبول أو تبلغه فتجف أوراقها وعيدانها فتيبس بعد نضارة، وتتفتت وتتكسر بعد صلابة.

والى جانب ما ورد بآيات القرآن الكريم من ذكر الألوان بشكل عام وبمفهوم شامل من حيث المعنى والمدلول، فان هناك كثير من الآيات القرآنية التى وردت فيها الإشارة فى مجال الوصف إلى ألوان بعينها حسب ما نعرفه من كنه اللون ونوعه وصفته وبوسع. الكاتب أن يشير إلى بعض هذه الأمثلة.

فيقول الله تعالى فى مجال الوصف باللون الأبيض والأسود كلونين متناقضين :

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

فيوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالسرور والإيمان والطاعة، وتسود وجوه الكافرين

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٦، ١٠٧ .

بالكآبة والحزن والكفر والمعاصى، ذلك أن المؤمنين هم أصحاب الجنة السعداء الأبرار الذين تبيض وجوهم وتزداد إشراقاً بنور إيمانهم وأعمالهم الصالحات، أما الكفار فهم أهل النار، الذين يسومون عذاب جهنم بسبب كفرهم فان غضب الله ينعكس على وجوههم وكذلك سواد قلوبهم فتزداد وجوههم سواداً وكآبة. ويقول تعالى:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾(١).

حيث جاء اللون الأبيض كصفة للعين فى حال معينة. فإن أبا يوسف عندما أخبره أبناؤه بما حدث لأخيهم، اعرض عنهم كراهة لما سمع منهم وحزن حزنا شديداً وأخذ يبكى حسرة وألما على يوسف حتى فقد بصره وزال سواد عينيه، وابيضت عيناه من شدة الحزن والبكاء.

ومن الثابت طبياً أن الحزن الشديد هو حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين فتصابا بضعف البصر تدريجياً حتى يزول البصر تماما ويختفى سوداها (إنسانها) وتبدو العين بيضاء تماماً. ويقول تعالى : ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾(٢).

أى أن سيدنا موسى عليه السلام بعد أن ألقى عصاه فإذا بها حية ضخمة حقيقة ظاهرة للعيان أخرج يده من جيبه فإذا بها بيضاء بياضاً نورانيا عجيبا يغلب نورها نور الشمس. والبياض هنا ليس بياضاً حسياً مادياً وإنما هو بياض معنوى وهو نور الإيمان. وفى ذلك يقول ابن عباس عن سيدنا موسى عليه السلام : «كان ليده نور ساطع يضىء ما بين السماء والأرض »(٣).

ويقول تعالى :﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(٤).

---

(١) سورة يوسف: آية ٨٤ .
(٢) سورة الأعراف: آية ١٠٧، ١٠٨ .
(٣) محمد على الصابونى: **صفوة التفاسير**: ح١، ص ٤٦٣ .
(٤) سورة البقرة: آية ١٨٧ .

وفى هذه المقابلة الجمالية الرائعة بين هذين اللونين المتباينين إلى درجة التضاد يقول صاحب (صفوة التفاسير) عن الشريف الرضى إن هذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل. والخيطان ها هنا مجاز وإنما شبههما بذلك لان بياض الصبح يكون فى أول طلوعه مشرقاً خافياً، ويكون سواد الليل منقضيا مولياً، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استسراراً.

ويتعدد ورود اللون الأسود مفرداً فى آيات أخرى، يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل: ٥٨)

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (الزمر: ٦٠ )

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (فاطر: ٢٧)

وما تزال سيمفونية الألوان تردد نغماتها فى وصف المحسوس والمعنوى من الأشياء والمعانى فى كثير من آيات القرآن الكريم وفى كثير من المواضع. فاللون الأزرق لون السماء والبحر، لون الهدوء والشاعرية، يجيء فى القرآن الكريم كصفة للرعب والفزع الذى يبدو ويرتسم على وجوه الكافرين يوم الحشر عندما ينفخ فى الصور لبعث الأحياء من القبور.

ويقول المفسرون أن فى هذه الحالة تشوه خلقة المجرمين بزرقه العيون وسواد الوجوه.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾(١).

أما اللون الأصفر، فيتردد فى عدد من المواضع فى الكثير من آيات القران الكريم يقول تعالى :

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾(٢).

وهذه الصورة من روائع صور التشبيه، فقد وصف الله جهنم، بأن نارها هائلة شديدة يتطاير من لهبها شرر قوى هائل وضخم كالحصون، وكل شرارة منه كالقصر فى ارتفاعها وضخامتها، تتطاير فى سرعة وحركة شديدة بما يشبه الجمال بلونها الأصفر وسرعتها العالية فى العدو والحركة.

---

(١) سورة طه: ١٠٢ .

(٢) سورة المرسلات: آية ٣٢ ـ ٣٣ .

ويقول تعالى :

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾(١).

بمعنى أن البقرة شديدة الاصفرار ـ وذلك لتشبع اللون الأصفر بالمادة الملونة التى تتلألأ فى الضوء فتشد النظر إليها وتجذب الانتباه وينبهر الناظر إليها لصفاء لونها وشدته ووضوحه وقوته.

«وما يستوقفنا هنا هو أن هذه القصة قد حدثت فى العصر الفرعونى أى قبل نزول الوحى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بمئات السنين، وسؤالهم عن لون البقرة (صفراء) وما جاء فى الإجابة من تحديد لكنه اللون، ودرجة اللون، ومقدار نقائه وزهائه، وما يحدثه فى نفوس المتلقين من اثر نفسى (تسر الناظرين) يدل دلالة قاطعة على أن معرفتهم بالألوان كانت عظيمة وعميقة مما كان له الأثر الواضح على حياتهم ومعاملاتهم، وهو ما أثبته علماء الآثار بعد الكشوف الأثرية التى أزيح عنها النقاب فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أى بعد نزول الآيات الكريمة بأربعمائة وألف سنة، إلا يمكن اعتبار هذا وجهاً يضاف إلى وجوه أعجاز القران التى لا تعد ولا تحصى ؟

وهذا يعنى أيضا أن معرفة الإنسان بالألوان كانت منذ زمن ابعد ... فمن غير المعقول أن يصل إنسان ذلك العصر لكل تلك التفاصيل الدقيقة هكذا فجأة دون مقدمات بل لابد لهذه المعرفة إنها كانت منذ زمن أقدم وأنها تطورت شيئا فشيئا حتى وصلت إلى تلك النتيجة ... وهى سنة الله فى الحياة الدنيا» (٢)

فلقد عرف العرب أيضا تأثير الألوان على النفوس البشرية، فقد حكى النقاش عن ابن العباس قال : «الصفرة تسر النفس وحض على لباس النعال الأصفر اللون» . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : «من لبس نعلى جلد اصفر قل همه »، ولعله استقى هذه المعلومة من قوله سبحانه وتعالى :

﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

---

(١) سورة البقرة: آية ٦٩ .

(٢) أحمد رأفت على: **الرسم بالألوان فى القرآن**، ومرجع سابق، ص ١٥٣ .

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾(١).

أى وان أرسل الله على الزرع الأخضر اليانع ريحاً أحنرت به وسببت ذبوله واصفرار لونه فرأى أصحاب الزرع لونه مصفراً من اثر تلك الريح فمكثوا بعد اصفراره يجحدون بنعمة الله. فهم بذلك يفرحون عند الخصب ويكفرون بنعم الله عليهم عندما يصيبهم أى مكروه.

أما فيما يوصف بصفة (الخضرة)

فيقول تعالى :

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾(٢).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾(٣).

﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾(٤).

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾(٥).

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾(٦).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٧).

ومن الملاحظ أن القران الكريم لم يورد فى آياته من الألوان سوى ما يعرفه المتخصصون بالألوان الأساسية وهى الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر، والألوان المحايدة وهى الأبيض والأسود سواء الألوان بمفهومها الضوئى أو الصبغى، لكى يترك لخيال المتلقى وحسه أن يتمثلا جميع الدرجات اللونية العديدة، من اللون الواحد أو ما ينتج عن مزج الألوان الأساسية ليتفرع عنها الألوان الأخرى المركبة، وذلك باستثناء ما يقتضيه المعنى من ضرورة عرض المراحل اللونية المتعددة فى الكائن الحى موضوع

(١) سورة الروم: آية ٥١ .
(٢) سورة الأنعام: آية ٩٩ .
(٣) سورة يس: آية ٨٠ .
(٤) سورة يوسف: آية ٤٣ .
(٥) سورة الرحمن: آية ٧٦ .
(٦) سورة الإنسان: آية ٢١ .
(٧) سورة الحج: آية ٦٣ .

النص أو التعبير القرآنى، مثلما يراد إبراز حركة نمو الزرع ونضجه الكامل حيث يتوهج باللون الأخضر الداكن ثم يبدأ في الاصفرار عندما يميل إلى الموات والذبول والجفاف والتفتت ﴿... ثم تهيج فتراه مصفراً﴾.

وقد يكون ذلك وجه أخر يضاف إلى الوجوه المتعددة التى لا تحصى لإعجاز القرآن الكريم.

## القرآن وجمال الحركة

تعرف الحركة بأنها: «انتقال الجسم من مكان إلى مكان أخر أو انتقال أجزائه» (١)

وتعد الحركة «من بين أهم مثيرات الانتباه فى المجال البصرى، فمهما كانت حالة الاستغراق الذهنى التى يعيشها الفرد فمن المؤكد أن تستثيره أى حركة يدركها مهما كانت درجة بساطتها. والحركة هى فعل ينطوى على تغير يقابله رد فعل. ومن غير الضرورى أن يجئ رد الفعل على هيئة حركة ملموسة، فقد يكون رد الفعل داخليا يثور على هيئة أحاسيس وانفعالات» (٢)

فالحركة أذن هى موضوع تفكير،وهى تتراوح بين أقل التصورات وأعلاها وبين أسطها وأعقدها. وقد تكون الحركة للأشياء والأجسام ، مستمرة ومتصلة، أو متغيرة ومطردة.وهذه التغيرات قد تكون تدريجية وقد تكون على شكل طفرات مفاجئة أو على شكل تحولات تبدو فورية لتتخذ تطورا منطقيا.

ولقد قام العلماء بتقسيم الحركة وتصنيفها إلى أنواع سواء من حيث مصدرها ونوعية القوى المؤثرة فيها والمحدثة لها مثل الحركة الطبيعية بفعل الرياح والجاذبية،والحركة العضوية أو الحيوية كدورة الحياة فى الكائنات الحية.(كما فعل جون هالس ) أو من حيث كونها حركة طبيعية مستمرة،أوصنا عيه متقطعة (كما يرى فيلدمان) آو من حيث كونها حركة موضوعية حقيقية تحدث تغيراتها فى المجال المرئى، أو حركة ذهنية تتمثل ايهاميا فى عملية الإدراك حيث يدخل عنصر الزمن فى الحالتين. ( كما يرى روبرت جيلام سكوت ).

---

(١) المعجم الوجيز: مجمع اللغة العربية، ١٩٩٣، ص ١٤٦.

(٢) عبد الفتاح رياض: **التكوين فى الفنون التشكيلية**، ص ٩٧ .

وكما وضع العلماء تصنيفاتهم لأنواع الحركة وضعوا أيضا مختلف المقاييس الطبيعية لقياس الحركة ذاتها، وتحديدها من حيث الشكل والنوع والاتجاه والمعدل.

«حيث يعتبر الشكل أحد مسببات الحركة، فنحن لا نستطيع أن نفصل بين هيئة الكائن وحركته فبقدرة الطائر على الطيران ترتبط بشكل جسمه. كما يمكن تميز الحركات من حيث النوع فهى إما أن تكون مستمرة فى اتجاه مرسوم طولى أو دائرى وإما أن تكون دورية مثل أرجحة البندول. أما المعدل فقد تكون الحركة سريعة أو بطيئة أو متوسطة، وقد يكون المعدل ثابتا أو متغيرا وفى نظام اطرادى أو مفاجئ. أما اتجاه الحركة فهو أهم ما يميزها فالحركة أما أن تكون مستمرة فى اتجاه معين وإما أن تغير من هذا الاتجاه، وقد تكون هذه التغيرات فى الاتجاه الإطرادى أو العكس» (١)

وتعتبر الطبيعة والكون هما المصدران الوحيدان لكل مظاهر الحركة،فلا يوجد شكل أو نوع للحركة إلا وله تمثيل فيهما، فالأرض نفسها تتحرك وتدور حول نفسها فى حركة دائمة تشعرنا بمعنى الزمن المستمد من تعاقب الليل والنهار، والطبيعة كذلك فى حركة دائمة، فاندفاع مياه الشلالات وحركة الرياح وكذلك الطيور المحلقة فى السماء،والشمس والأرض فى حركتهما المستمرة منذ الأزل، وحركة الإلكترون حول النواة،وحركة الكائنات الحية متمثلة فى حركة الإنسان وحركة النبات،وحركة الحيوان،وهى تعتبر من أهم صفاتها وهى الدليل على وجودها.

فالحركة إذن من أهم العناصر الملموسة فى الطبيعة والحياة.وهناك دلالات تشير إلى حدوثها. فالرياح مثلا حين تشتد لا نعرف تأثيرها بصريا إلا فى حركة الأشجار والأعشاب والنباتات، أو تطاير رداء سيدة تسير فى الطريق، وكذلك حين تتحرك عربة فى طريق ترابى غير ممهد،تثير خلفها سحابة من الأتربة مما يدل على حدوث الحركة.

«وقد تختلف الحركة كذلك فى أشكالها، إذ قد تكون بسيطة مثل وثبة الإنسان أو الحيوان أو حركة. الراقص أو اختراق سهم فى الفضاء، أو قد تكون حركة مركبة مثل حركة الآلة أو حركات أعضاء جسم الإنسان.فالحركة بهذا هى أهم ظاهرة تتسم بها الطبيعة »(٢)

---

(١) جمال عبد الحليم سالم: **الحركة فى النحت والحياة**، رسالة دكتوراه كلية الفنون الجميلة، جامعة حلوان، ١٩٩٨، ص ٢٠ .

(٢) نفس المرجع: ص ١٧ .

وتتصف كل الكائنات والأفكار بالحياة طالما كانت قادرة على الحركة. فهذه الظاهرة.هى التى لولاها لما كانت هناك حياة ولأصبح كل شئ جامدا غير قابل للنمو أو التطور- فهى أهم السمات الطبيعية والخواص الإنسانية جميعا، «فأنه بالنظر إلى الطبيعة والحياة يتضح أنهما لا يكشفان عن تدفق وصيرورة فحسب بل أنهما تظهران أيضا استمراراً واتصالا، وتنطوى فى ثناياها قوى وبنايات تدوم عبر التغير، والتغير محتوم ولابد من مواجهته لان التغيرات جميعا تدريجية وقد تكون على شكل طفرات مفاجئة أو على شكل تحولات تبدو فورية لتتخذ تطورا منطقيا »(١)

أن الطبيعة تنمو وتتغير وتتشابك ولا تقف عند مظاهرها الخارجية،بل هناك نظم وقوانين تحكمها كالنمو والتغير ودورة الحياة. أى أن كل ما يحدث لعناصر الكون يتميز بالتغير والحركة.فالكون مبنى وفق هندسة وقوانين دقيقة، كل شئ يتحرك بحساب دقيق من الذرة المتناهية فى الصغر إلى الفلك العظيم.

«أن هذا الوجود اللامتنا هى هو أشبة بمعزوفة متناسقة الانغام،كل حركة فيها بمقدار، والمتأمل للنظام الكونى يستطيع أن يدرك أن حركة الكون ليست حركة عشوائية ولكنها حركة يحكمها نظام محكم يؤدى إلى نتائج مقصودة قد تكون متشابهه أو غير متشابهة مع حقيقتها الظاهرة. فالطبيعة بمكوناتها المختلفة والمتباينة قد تتشابه فيها العناصر من حيث الشكل واللون والملمس ولكنها لا تتطابق حرفيا.فالطبيعة يمكن أن تتمثل فى عدة صور وليس فقط فى الموجودات الظاهرة أمام الرؤية. بل هى أيضا ذلك العالم الباطنى المتغلغل فى النفس»(٢)

والتعبير عن عنصر الحركة هو جزء من لغة الفن والجمال،ذلك لان الوجدان فى أصله خطوط وألوان، وليس صورا إنسانية أو حيوانية أو نباتية، كما أنه ليس انغاما أو كلاما منظوما إنما هو فى الحقيقة نوع من الذبذبات أو الشفافيات التى لا ترى ولا تسمع، ويتحقق التعبير بسحر الفن الذى يحول المادة إلى طاقة دون أن تفقد المادة كثافتها الظاهرة.فمثلا فى رقص البالية تتحرك الأجسام فتتحرك معها العين لكى تتابع حركاتها وذلك لأن المعانى التى تعبر عنها إنما تتعلق بهذه الحركات أكثر مما تتعلق

---

(١) جون ديوى: **الفن خبرة**، ترجمة ذكريا إبراهيم، ص ٥٤ .

(٢) شيرين خيرى أحمد: دراسة الظواهر الكونية لاستلهام رؤية فنية لعنصر الحركة فى التصوير، رسالة دكتوراة، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤، ص ١٥٣ .

بالجسم ذاته، وكذلك القصة بما فيها من حركات ما هى إلا ذريعة تعبر عن معان نفسية خفية ولا يكون لها سبيل للتعبير إلا لغة الحركة »[١]

وعندما يتناول التعبير القرآنى تصوير الحركة بأنواعها واتجاهاتها وكل مقاييسها _ فى الظواهر الكونية والمشاهد الطبيعية والكائنات الحية، لتحقيق الغرض الدينى والعقائدى، فأنه فى نفس الوقت يتناول أحد أهم مقومات التصوير الجمالى وابرز سمات التعبير الفنى الخالص، ذلك هو عنصر الحركة التى تضفى على موضوع التعبير القوة والفاعلية والحياة .. إنها قوة التأثير فى نفس المتلقى ووجدانه، وقوة التحريك لحواسه وخياله.وقوة الترسيخ لفهمه وتصوره واستيعابه لموضوع التعبير.وهنا تكمن معجزة القران الكريم وعظمته عندما يلتقى فى آياته المحكمات وفى كل صورة يرسمها _ الغرض الدينى مع الغرض الفنى فى وحدة واحدة يسودها التوازن والاتساق والانسجام والتواؤم. ولقد وردت لفظة ( الحركة ) فى الكثير من المواضع والآيات بالقرآن الكريم سواء بلفظتها المباشرة أو بمختلف المترادفات من الكلمات والألفاظ التى ترد بنفس معنى الحركة والتحرك[*]. يورد المؤلف نماذج من الآيات القرآنية التى ورد بها ما يشير من ألفاظ إلى حركة الكائنات الحية، أو الظواهر الكونية أو الطبيعية:

﴿ لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتعْجَلَ به (١٦) إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ (القيامة: ١٦).

﴿ إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴾ (الشورى: ٣٣).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ (الفرقان: ٤٥)

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (الطور : ٤٤)

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم: ٢٥)

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ (الأنعام : ٥٩)

﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ (الأنعام: ٦)

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ (الأنبياء: ٨١)

---

(١) صبرى عبد الغنى، إبراهيم عبد الغنى: محاضرات فى الفن الحديث، ص ١٢٥ .

(*) سوف يورد المؤلف بشئ من لتفصيل أمثلة من هذه الصور التعبيرية الجمالية عن الحركة فى موضع لاحق فى هذا البحث.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (يس: ٣٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ (لقمان: ٣١)

﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الرعد: ٢)

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ الكهف: ١٨)

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ (أل عمران: ١٩٦)

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤)

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٤)

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٣٨)

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠)

﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الانعام: ١٢٥)

﴿كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ (المدثر: ١٦ ـ ١٧)

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: ١٠٥)

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ (الحديد: ٤).

﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١)

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم: ١ ـ ٢)

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (طه: ٨١)

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣)

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ (النازعات: ٣ ـ ٤)

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ (الشمس: ٥ ـ ٦)

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ (يوسف: ٩)

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يوسف: ١٠٠)

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ (البقرة: ١٢٧)

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (الغاشية: ١٣ ـ ١٤)

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام:٣٨)

وهكذا فان المتأمل لسور القرآن الكريم وآياته المحكمات ليلاحظ أن تصوير الحركة ظاهرة أم مضمرة. هو سمة غالبة فى التعبير القرآنى.

إنه تصوير جمالى أخاذ، فهى حركة حية يرتفع بها نبض الحياة وتعلو بها حرارتها. «وهذه الحركة ليست مقصورة على مشاهد القصص والحوادث ولا على مشاهد القيامة، ولا صور النعيم والعذاب أو صور البرهنة والجدل، بل إنها لتلحظ كذلك فى مواضع أخرى لا ينتظر أن تلحظ فيها. فهى حركة حية مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان أو الحياة المضمرة فى الوجدان، وهى التى يسير عليها التصوير فى القرآن لبث الحياة فى شتى الصور مع اختلاف الشيات والألوان»(١)

## القرآن... وتجاوز الجمال الحسى

الإسلام دين الكمال الانسانى فى كل صوره. والتصور الاسلامى للكون والحياة والإنسان هو أشمل وأكمل تصور عرفته البشرية. إنه التصور الذى لا يعتد بجانب من الوجود دون الجانب الأخرى، إنما يجمع الوجود كله بما دياته وروحانياته، ومعنوياته وكل كائناته. يجمع الإنسان جسما وروحا، فردا وجماعة مع كائنات الأرض. أحياء. وغير أحياء. وظواهر الكون ويربط بينها جميعا بنظام دقيق وناموس محكم مترابط متناسق متوازن، لا محل فيه للفوضى ولا مكان فيه للإضطراب ولا احتمال للمصادفة أو الجزاف يحرك هذا النظام كله حقيقة واحدة هى الجوهر والحق ..المدبر القادر الحكيم.

هكذا خلق الله الكون وهكذا خلق فيه الجمال مثلما خلق فيه الكمال.. فالجمال فى هذا الوجود كامل متكامل.

---

(١) سيد قطب: **التصوير فى القرآن**، ص ٦٣ .

ولقد اشرنا فى الصفحات السابقة إلى مواطن الجمال فى هذا الكون الذى خلقه الله وعجائب الله المعجزة فى هذا الخلق استشهادا بآيات القرآن الكريم... فى جمال الإنسان وحسن صورته، وفى جمال الكون بأرضه وسمائه وكائناته ومخلوقاته وجمال مظاهرة وما بها من إبداع الخالق ودلائل قدرته وإعجازه.

وكان كل ما اشرنا إليه من مواطن الجمال فى كتاب الكون المفتوح هو صور من ذلك الجمال الحسى الذى ندركه بحواسنا جمالا مرئيا أو مسموعا أو ملموسا أو متذوقا.

على أن القرآن الكريم عندما لفت أنظارنا إلى الجمال ووجهنا إليه وحثنا عليه، لم يقف بنا عند حدود الجمال الحسى المادى، بل تجاوزت دعوته هذه الحدود الضيقة إلى أفاق أرحب وأوسع والى تصور اشمل وأرقى للجمال، ذلك هو الجمال المعنوى.. إنه جمال النفس والروح، عندما يتحول الجمال المادى فى النفس البشرية إلى سلوك وخلق وقيم ومثل عليا.

أن جمال النفس يجعل للحياة بريقا وللذهن صفاء ونقاء، وللقلب حصنا ونورا. ولقد أبدع الله تجلت قدرته وتعاظمت ذاته وصفاته فى خلق النفس البشرية وهيأها لتحمل بين جنباتها أسمى وأرقى غايات الجمال. إن جمال النفس يستمد قوته من صفاء القلب وهدوء الطبع ونقاء السريرة وراحة الضمير.

لم يكتفى القرآن الكريم بان يكون الجمال فى الإنسان جمال الخلقة والصورة والمظهر فقط بل أطلق صفة الجمال على الكثير من السلوك والخلق الإنسانى، فجعل الصبر جميلا والهجر جميلا والقول جميلا والسراح جميلا.. وفى الكثير من آيات القرآن الكريم إشارات إلى ذلك. فيقول تعالى:

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (١)

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٢)

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ (٣)

---

(١) سورة يوسف: أية ١٨ .
(٢) سورة الحجر: أية ٨٥ .
(٣) سورة الأحزاب: أية ٢٨ .

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (١)

وفى إطلاق صفة الجمال على السلوك الإنسانى فى القول والعمل والتصرف والتعامل ترد فى آيات القرآن الكريم ألفاظ أخرى تصف هذه الأنواع من السلوك الجمالى بغير اللفظ المباشر ( جميل ) ولكن بنفس المعنى والمقصد. وفى كثير من الآيات ترد كلمة ( الإحسان ) بمعنى ( الجمال ). الذى يكمن فى الإجادة والإتقان والتهذيب والتجميل. فيقول تعالى :

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾(٢)

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾(٣)

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾(٤)

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٥)

فلقد وصف الله السلوك الجميل بأنه السلوك الحسن وان تحسين السلوك وتهذيبه وتقويم الخلق والسمو به هو تجميل لذلك السلوك لرفعته، والصعود به إلى مرتبه الجمال والكمال فى إطار ناموس الكون الأكبر الذى يقيس به الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان .. ذلك الناموس هو ناموس الوجود الذى فطره فاطر الكون والحياة الذى يحكمه النظام الالهى الشامل والكامل، المتناسق والمتوازن.

وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وأبو داوود:

« أن الله كتب الإحسان على كل شئ ... فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليريح ذبيحته».

ولما كان (الحُسْن) يرادف (الجمال) فى معاجم اللغة، فلقد ورد فى القرآن الكريم هذا المعنى فى الكثير من الآيات، حيث جعل الله الثواب حسناً، والمآب حسناً، والقول حسناً، والقبول حسناً، والقرض حسناً، والبلاء حسناً، والرزق حسناً، والمتاع حسناً، والأجر حسناً، والوعد حسناً، والعمل حسناً.

---

(١) سورة المزمل: أية ١٠ .
(٢) سورة السجدة: أية ٧ .
(٣) سورة البقرة: أية ١٧٨ .
(٤) سورة البقرة : أية ٢٢٩ .
(٥) سورة التوبة: أية ١٠٠ .

فيقول تعالى فى كتابه الكريم:

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ (آل عمران: ١٤٨)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (الرعد : ٢٥)

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة: ٨٣)

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (آل عمران: ٣٧)

﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (المائدة : ١٢)

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٧)

﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ (النحل : ٧٥)

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ (هود: ٣)

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (الكهف: ٢)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ (طـه: ٨٦)

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (فاطر : ٨)

وإذا كانت (الزينة) مرادفة للجمال والحسن. فقد جاءت هذه اللفظة فيما أوردناه فى موضع أخر من آيات القرآن الكريم بالمعنى الحسى الذى يصف جمال المخلوقات من إنسان وغيره. إلا إنها قد وردت أيضا لوصف بعض مواطن الجمال المعنوى من صفات وسمات فى السلوك والخلق والعقائد.

فيقول تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾[١]

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾[٢]

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[٣]

---

(١) سورة الحجرات: أية ٧، ٨ .

(٢) سورة الأنعام: أية ١٠٨ .

(٣) سوورة فصلت: أية ٢٥ .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾[1]

وضع الإسلام قواعد السلوك الانسانى على أسس الحق والجمال وجعلها منهج المسلم فى حياته ومعاملاته. وجعل الرفق واللين والتواضع من أهم آداب السلوك الاجتماعى، بل السلوك الجمالى فى الحياة.

«ولما كان الكبر والتعالى على الناس مما يتنافى مع جمال الخلق وكرم النفس، ويغرس الفرقة والعداوة ويقطع ما أمر الله به أن يوصل من صلات، شن الإسلام عليه حرباً شعواء ليطهر منه النفوس والقلوب»[2]

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[3]

ويخاطب الله تعالى المسلم ويوجه نظره إلى توخى الحسن والجمال فى مشيته، وفى حديثة بطريقة لائقة محببه إلى النفس لا تتقزز لها الأسماع أو تشمئز منها الآذان.

ولقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان : خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، واسجد له ملائكته، وفضله على جميع الخلق، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا وجعله خليفته فى أرضه، وزوده بالقوى والمواهب ليسود الأرض وليصل إلى أقصى ما قدر له من ارتقاء، وكمال وجمال مادى وروحى.

والعواطف الإنسانية والميول الوجدانية والمشاعر الانفعالية هى أرقى ماحباالله به الإنسان ليسمو بإنسانيته.. وما من شك فى أن عواطف الحب والجنس متأصلة فى الكيان البشرى وأنها من اكبر الطاقات الموجهة لمشاعر الناس و سلوكهم. ويأخذ الجنس مساحة واسعة فى النفس الإنسانية باعتباره وسيلة لحفظ النوع وترقيته وليست غاية فى حد ذاتها. إلا أن الجنس حين يأخذ مساحته فى النفس السوية لا يفسد تكوينها الطبيعى المتزن المترابط الذى لا يجور ولا ينفصل عما سواه من مشاعر.

ومن هذا المنطلق كان تصور الإسلام لمشاعر الجنس، حيث جعلها الله تعالى فى

---

(١) سورة الحجر : أية ٣٩ .
(٢) سيد سابق: إسلامنا، ص ٢٠٢ .
(٣) سورة لقمان: أية ١٨ ، ١٩ .

أحسن صورة وأرق مظهر وأجمل أداء، إنه أداء يسمو بها على النهم الحيوانى المسعور إلى أسمى معانى الرفق والود و المحبة و الرحمة والجمال.

لقد تمثلت فكرة الجنس فى الإسلام لا على أنها عملية بيولوجية خالصة أساسها حيوانية الإنسان ومادته ولكنها فكرة أكثر أصالة فى فطرة الكون وأكثر عمقاً فى فطرة الحياة.

«ونداء الجنس ذاته أليس يتحقق فى كل أنثى وكل ذكر وبصرف النظر عن ذلك الجمال؟ كلا انه ليس (ضرورة) وإنما هو (جمال)، انه إحسان فى الأداء لا مجرد الأداء»(١)

يقول الله تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٢)

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٣)

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾(٤)

ففى الآية الأولى يتجلى مفهوم السكن بكل معانى الهدوء والسكون والطمأنينة. والراحة والاستقرار وهى كلها أهداف سامية للزواج. كما يتجلى مفهوم العلاقة الزوجية والمثالية التى تسودها الرحمة الندية والمودة اللطيفة والأنس المحبب.

وفى الآية الثانية «تصوير بارع لعلاقة الجسد والروح، فاللباس ألصق شئ ببدن الإنسان، وهو الستر الذى يستتر به وهو فى الوقت ذاته مفصل على قده لا ينقص ولا يزيد. والرجل والمرأة ألصق شئ بعضهما ببعض : يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة، وفى لحظة يذوب كل منها فى الأخر، ثم هما ستر كل واحد للأخر من الناحية الجسدية والروحية والنفسية، فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين يحرص كل منهما على عرض الأخر وماله ونفسه وأسراره، أن ينكشف منها شئ فتنهبه الأفواه

---

(١) محمد قطب: **منهج الفن الإسلامى**، ص (١).

(٢) سورة الروم: أية ٢١ . (٣) سورة البقرة: أية ١٨٧ .

(٤) سورة البقرة: أية ٢٢٣ .

والعيون وهما كذلك وقاية لكل منهما عن الفاحشة والسوء كما يقى الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير. وهما بعد ذلك كاللباس فى تفصيله مضموماً على القد يلبسه صاحبه فيكتسب به زينة وجمالاً تسر صاحبها وتسر الناظرين» (١).

هذا هو تصوير القرآن الكريم لعواطف الحب والجنس عند الإنسان.. إنه تصوير شامل جامع، وهو فى الوقت نفسه تصوير راق متنزه سام مترفع.. تصوير علته الجمال وغايته الجمال.. جمال اللقاء وجمال الأداء.. جمال الانفعال وجمال الاتصال.

فهذا الكتاب الالهى المبدع الذى يوجه الحس البشرى إلى ( الجمال ) بلفظه الصريح، أو بكل مرادفات اللفظ من ألفاظ أخرى، لا يترك فرصة دون توجيه هذا الحس إلى كل لون من ألوان الجمال، الجمال المادى والجمال الروحى، الجمال الحسى والجمال المعنوى.. الجمال فى الطبيعة، والجمال فى الأحياء والجماد، والجمال فى النفوس والمشاعر والتصرف والسلوك. والجمال فى الخلق قولاً وعملاً.

(١) محمد قطب: المرجع السابق، ص ١٠٥ .